

## فصل

في ذكر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل

### الولايات بين أولاده

قال العماد: وكان السلطان ملازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه، وكان الملك الأفضل نور الدين علي بمصر، وهو ولده الأكبر، وقد بدأ يظهر، وعلى تجويد الخط والأدب وسماع الأحاديث النبوية يتوفر، وقد مالت إليه بمصر جماعة، وله منهم طاعة، وربما نقم تقي الدين النائب هناك من أحد أمراً فوقعت منه فيه شفاعاة، فكتب يشكو من اختلال أمره، واشتغال سره، وكان في نفس السلطان أن ينقل ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر ليكون عزيزها، وليحرز مملكتها ويجوزها، وهو مفكر في طريق تدبيره ووجه تقريره، حتى بدا له نقل الأفضل إلى الشام، فكتب إليه يتشوقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمه وأصحابه، فخرج ووصل دمشق يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وخرج السلطان لاستقباله وأنزله بالقلعة في دار رضوانه، وكتب إلى تقي الدين أنه استقل أمره، وزال عذره، فابتهج بتفرده وخفي عنه أنه كان في ذمة ولد السلطان وعصمته، وإن تمام حرمة بحرمته.

قال: ولما وصلنا إلى دمشق كان بها من أولاد السلطان الملك الظاهر غازي غياث الدين، فزار عمه العادل، وهو صهره، وقد اشتد بمصاهرتة، ظهره، فقال له: قد نزلت عن حلب لك، وأنا أقنع من أخي باقطاع أين كان، وألزم الخدمة ولا أفارق السلطان، فأطلبها من أبيك إن كانت ترضيك، وجاء إلى السلطان وقال هذه حلب مع رغبتني لتوليها أرى أن أحد أولادك بها أحق، وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب أن أوثره بها، فقال السلطان: المهم الآن تدبير ولدي الملك العزيز فإن مصر لا بد

أن يكون لي بها ولد أعتد عليه، وأسند ملكها إليه، ورحل إلى الزرقا،  
ومعه ولداه العزيز والظاهر وأخوه العادل، فالتمس العادل عوض حلب  
بلادا عينها، ونواحي بمصر بينها وكان قد مال الملك العزيز إليه  
لأشرفه عليه، فسأل أباه أن يسير معه العادل فإنه نعم الكافي الكافل، فأعطاه السلطان  
بمصر البلاد المعروفة بالشرقية، واعتمد عليه في نيابته في سائر الممالك  
المصرية، ولما سمع تقي الدين هذا الخبر نبا ونفر، وذم الغير، واستبدل  
من الصفو الكدر، وغار من تغير الرأي فيه، وإذا تولى أبو بكر فلا عمر،  
فعبّر إلى الجيزة، مظهرا أنه يمضي إلى بلاد المغرب ليملكها، وكتب يسأل  
السلطان أن لا يمنعه من سلوك مسلكها، وسمت همته إلى مملكة جديدة،  
وأقاليم ذات ظلال مديدة، وبلاد واسعة، ومدن شاسعة، وقد كان أحد  
ممالكه المعروف بقراقوش، قد جمع من قبل الجيوش وسار إلى بلاد برقة  
فملكها، وهزته الأمنية للنفائس من بلاد نفوسة فأدركها، وتجاوز إلى  
إفريقية وهو يكتب أبدا إلى مالكة الملك المظفر يرغبه في تلك المملكة  
ويقول إن البلاد سائبة، فلما تجدد لتقي الدين ما تجدد، وتمهد لعمه  
العادل ما تمهد، عاد له ذكر المغرب فعبّر بعسكره، ومالت إليه عساكر  
مصر لبذله، وقدم مملوكه بوزبا في المقدمة، فلما انتهى إلى السلطان خبر  
عزمه قال: لعمري إن فتح المغرب مهم، ولكن فتح البيت المقدس أهم،  
والفائدة به أتم، والمصلحة منه أخص وأعم، وإذا توجه تقي الدين،  
واستصحب معه رجالنا المعروفة، ذهب العمر في اقتناء الرجال، وإذا  
فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل، وعلم لجاج تقي  
الدين في ركوب تلك اللجة، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه، وجهاز ولده  
العزيز إلى مصر، وقرر له قوص، وأعمالها، وسار معه عمه العادل، فدخل  
القاهرة في خامس شهر رمضان، وأما الملك الظاهر فسيره السلطان إلى  
حلب وأنعم عليه بها، وبسائر قلاعها وأقاليمها، وندب معه الحاجب  
شجاع الدين عيسى بن بلاشو، وعاد السلطان ومعه الأفضل، وقدم تقي  
الدين في آخر شعبان، وتلقاه السلطان وخيم على المصري فوق قصر أم

حكيم، فلما قرب ركب إلى موكبه، ورحب به ودخل دمشق، وعاد إلى ماكان له من البلاد ومنح المعرة وسائر أعمالها، ثم أضاف إليه ميفارقين، وجميع ما في ذلك الاقليم من المعامل، وكتب إلى مصر باستدعاء رجاله، وإعلامهم بتأخير عزم المغرب بل ابطاله، فامثلوا الأمر، وفارقوا إلى الشام مصر، سوى مملوكة زين الدين بوزبا فإنه رتب له عسكر إلى المغرب فمضى واستصحبه وغلب على بلاد إفريقية، ثم قصده صاحب المغرب فأخذه مأسورا، ثم أغزاه مع الغز في ثغر من الثغور فألفاه مشهورا مشكورا، فقدمه عليهم.

قلت: وكتب الفاضل إلى تقي الدين: «سبب هذه الخدمة ما اتصل بالمملوك من تردد رسائل مولانا في التماس السفر إلى الغرب، والدستور إليه— يكفي الزمان فما لنا نستعجل— يامولانا ما هذا الواقع الذي وقع، وما هذا الغريم من الهم الذي ما اندفع، بالأمس ما كان لكم من الدنيا إلا البلغة، واليوم قد وهب الله هذه النعمة، وقد كان الشمل مجموعا، والهم مقطوعا ممنوعا، أفتصبح الآن الدنيا ضيقة علينا، وقد وسعت، والأسباب بنا مقطوعة، ولا والله ما انقطعت، يامولانا إلى أين وما الغاية وهل نحن في ضائقة من عيش، أو في قلة من عدد، أو في عدم من بلاد، أو في شكوى من عدم، كيف نختار على الله، وقد اختار لنا، وكيف ندبر لأنفسنا وهو قد دبر لنا، وكيف ننتجع الجذب، ونحن في دار الخصب، وكيف نعدل إلى حرب الاسلام المنهي عنها، ونحن في المدعو إليها من حرب أهل الحرب، معاشر الخدام والجيش، وأرباب العقول والآراء أليس فيكم رجل رشيد:

تعقب الرأي وانظر في أواخره

فطالما اتهمت قدما أوائله

لا زال مولانا يمضي الآراء صائبة، ويلحظها بادية وعاقبة، ولاختل

منه دار إن خلت فهيهات أن تعمرو، ولاعدتمته أيام إن لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر».

وقال القاضي ابن شداد: وفي سابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الأفضل إلى دمشق، ولم يكن رأى الشام قبل ذلك، وكان السلطان رأى رواح الملك العادل إلى مصر، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر، فما زال يفاوضه في ذلك وهو على حران مريض، وحصل ذلك في نفس العادل فإنه كان يحب الديار المصرية، فلما عاد السلطان إلى دمشق ومن الله بعافيته سير يطلب العادل إلى دمشق، فتجهز من حلب جريدة، وأقام بدمشق في خدمة السلطان يجري بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جمادى الآخرة، فاستقر عود العادل إلى مصر ويسلم بلاد حلب إلى الظاهر، وسلم السلطان إليه ولده الملك العزيز، وجعله أتاكه.

قال: ولقد قال لي الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة: اجتمعت بخدمة الملك العزيز، والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للعزيز: أعلم يامولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم أن المفسدين كثير وغدا فما نخلوا ممن يقول مالا يجوز عني، ويخوفك مني، فإن كان لك عزم تسمع فقل لي حتى لأجيب، فقال: لأسمع وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: وأنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا فها لي إلا أنت وقد قنعت منك بمنيج، متى ضاق صدري من جانبه، فقال: مبارك، وذكر كل خير، ثم إن السلطان سير ولده الظاهر إلى حلب، وأعادها إليه، وكان رحمه الله يعلم أن حلب هي أصل الملك وجرثومته وقاعدته، ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلت له أعرض عما عداها من بلاد الشرق، وقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد، فسلمها إليه علما منه بحذاقته وحزمه، وحفظه، فسار حتى أتى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشارة، وواليا شجاع الدين عيسى بن بلاشوا، ونزل يوم الجمعة

بالعين المباركة، وخرج الناس إلى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الآخرة، وصعد القلعة ضاحي نهاره، وفرح الناس به فرحا شديدا، ومد على الناس جناح عدله، وأفاض عليهم وأبل فضله.

وأما الملك العزيز والعاقل فإن السلطان قرر حالهما، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسيرهما إلى مصر، ويأمره بالوصول إلى الشام، فشق ذلك عليه حتى ظهر للناس، وعزم على المسير إلى ديار الغرب إلى برقة، فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة، وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال، والله يعلم ما يكون منه بعد ذلك، فرأى الحق بعين البصيرة، وأجاب بالسمع والطاعة، وسلم البلاد، ورحل واصلا إلى خدمة السلطان، فسار السلطان إلى لقائه، فلقاه بمرج الصفر، وفرح بوصوله فرحا شديدا، وذلك في الثالث والعشرين من شعبان، وأعطاه حماة وسار إليها، وكان عقد بين الظاهر وبعض بنات العادل عقد نكاح، فتم ذلك، ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن شيركوه في شوال من هذه السنة.

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان: «الملك العادل والملك المظفر المذكوران ماهما أخ وابن أخ بل هما ولدان لا يعرفان إلا المولى والدا ومنعما، وكل واحد منهما له عش كثير الفراخ، وبيت كرقعة الشطرنج فيه صغار وكبار كالبيادق والرخاخ، فلا يقنع كل واحد منهما إلا طرف يملكه، وأقليم يتفرد به، فيدبر مولانا في ذلك بما يقتضيه صدره الواسع، وجوده الذي مانظر مثله الناظر، ولاسمع السامع، ولاينس قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مروا القرابة أن يتزاورا ولايتجاورا»، وماعلى مولانا عجلة في تدبير يدبره، ولافي أمر بيته « وستبدي لك الأيام ماكنت عارفا»، وفي غد ماليس في اليوم، ولله اقدار، ولها أمد، وقد رزق الله مولانا ذرية تود لو قدمت أنفسها بين يديه، ولو اكتحلت اجفانها بغبار

قدميه، مافيها من يشكي منه الا التزايد في الطلب، وهو من باب الثقة بكرم المنعم، ولهم أولاد، والمولى مد الآمال لهم، كما قال مولى الأمة: «تناكحوا تناسلوا فإني مكائر بكم الأمم»<sup>(٣٤)</sup> طالما قال لهم المولى لدوا وعلي تجهيز الإناث وغنى الذكور، وسواء على أفق البيت طلوع الشمس والبدور».

قال العماد: ومدحت تقي الدين بقصيدة سينية سنية، قطوفها دانية جنية، تشتمل على مائة وأربعين بيتا، أنشدته إياها في ثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق، وأوردت بعضها ومطلعها:

عفا الله عنكم عن ذوي الشوق نفسوا  
فقد تلفت منا قلوب وأنفس  
ألم تعلموا أي من الشوق موسر  
ألم تعلموا أي من الصبر مفلس  
ظننتم بعيني أنها ألف الكرى  
فهلا بعثتم طيفكم يتجسس  
وليس لقلبي في السرور تصرف  
فقلبي على الأحزان وقف محبس

ومنها:

لفتك محبيه تيقظ طرفه  
وتحسبه من سقم عينيه ينعس  
له ناظر عند الخلاف مناظر  
يقول دليل الدل عندي أقيس  
إذا درست الحافظه السحر أصبحت  
رسوم اصطباري درسا حين تدرس  
ولم أنس أنسي بالحمى رعى الحمى  
عشية لي مجنى ومجلى ومجلس  
لحى الله أبناء الزمان فكلهم  
صحيفته أودى بها المتلمس

ولولا ابتسامات المظفر بالندى  
لما راق نفسي صبحه المتنفس  
جلت شمس لقياه الحنادس بعدما  
عرتنا وهل يبقى مع الشمس حنّس  
وصار به هذا الزمان جميعه  
نهاراً فما للناس ليل معسوس  
إذا صال فالمفلول ألف مدرع  
وإن جاد فالمبذول ألف مكيس  
وليس بمغبون على فضل رأيه  
ويغبن في الأموال منه ويخس  
إذا أطلق الملك المظفر في الوغى  
اعتته فالشمس بالنقع تجبس  
فذاك ملوك لا يلبون داعياً  
وكلهم عن دعوة الحق يخس  
تشكى إليك الغرب جور ملوكه  
فاشكيتته والجور بالعدل يعكس  
سيهدى إلى المهديّة النصر والهدى  
بهديكم فيها وتونس تؤنس  
رددت كراديس الفرنج وكلهم  
لدى الأسر في غل الصغار مكردس  
وبيضت وجه الدين يوم لقيتهم  
وأبيضكم من أسود القصر أشوس  
أفاددم الأنجاس طهر سيفكم  
وما يستفاد الطهر لولا التنجس  
شموس ظبى تغدولها الهام سجدا  
فلله نصرانية تتمجس  
وكم كفى الاسلام سوءاً بملككم  
كفيتم على رغم المعادين كل سو

ولا يفتح البيت المقدس غيركم  
وبيتكم من كل عاب مقدس  
لهم كل يوم في جهاد مثلث  
إذا نصروا التوحيد فيء خمس  
إذا مات قي الدين صال تساقطت  
لأقدامه من عصابة الشرك أروس  
وماعمر إلا شبيهه سميّه  
شديد على الأعداء ثبت عمرس

## فصل

### في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان بطوفان الريح في سائر البلدان، وخوفوا بذلك من لاوثوق له باليقين ولاإحكام له في الدين، من ملوك الأعاجم والروم، وأشعروهم من تأثيرات النجوم، فشرعوا في حفر مغارات في التخوم، وتعميق بيوت في الأسراب، وتوثيقها، وسد منافسها على الريح وقطع طريقها ونقلوا إليها الماء والأزواد، وانتقلوا إليها وانتظروا الميعاد، وكلما سمعنا بأخبارهم استغربنا في الضحك من عقولهم، وسلطاننا متنمر من أباطيل المنجمين، موقن أن قولهم مبني على الكذب والتخمين، فلما كانت الليلة التي عينها المنجمون لمثل ريح عاد، وقد شارفنا الميعاد، ونحن جلوس عند السلطان في فضاء واسع، وناد للشموع المزهرات جامع، ومايتحرك لنا نسيم ولاالسرحة الهواء في رعي منابت الأنوار مسيم، فما رأينا ليلة مثلها في ركودها وركونها، وهدوها وهدونها.

قال ابن القادسي: وحكم أصحاب النجوم أن في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السيارة الخمسة، والشمس والقمر في برج الميزان، ويؤثر ذلك هواء عظيما وغيا سموميا، وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين تهلك البلاد، وتحمل الرمل ونسبوا ذلك إلى الخوارزمي، وقالوا: يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثاء إلى نصف ليلة الأربعاء، فاستعد لذلك أقوام في البلاد، وجمعوا الكعك وحفروا السرايب، فأهل رجب وماجرى مما قالوا شيء فخزي أهل التنجيم لذلك، ولم يهب في ذلك اليوم هواء البتة، وكان الزمان حارا واشتد الحر في ذلك اليوم وبعده، ولم يظهر مما قالوا شيء، وعمل الشعراء في ذلك

شعرا يزرون عليهم في حكمهم، منهم نجم الدين أبو الغنائم محمد بن  
علي بن المعلم الهرثي، وفخر الدين عيسى بن مودود دزدار قلعة  
تكريت، وأبو الفتح سبط ابن التعاويذي. قال أبو الغنائم بن المعلم:  
قل لأبي الفضل قول معترف

مضى جمادى وجاءنا رجب  
وما جرت زعزعا كما حكموا  
ولا بدا كوكب له ذنب  
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا  
أبدت أذى في قرانها الشهب  
يقضي عليها من ليس يعلم ما  
يقضي عليه هذا هو العجب  
فارم بتقويمك الفرات والأصـ  
طرباب خير من صفرة الخشب  
قد بان كذب المنجمين وفي  
أي مقال قالوا فما كذبوا  
مدبر الأمر واحد ليس  
للسبعة في كل حادث سبب  
لا المشتري سالم ولا زحـل  
باق ولا زهرة ولا قطب  
تبارك الله حصحص الحق وانجا  
ب التماذي وزالت الريب  
فليبطل المدعون ما وضعوا  
في كتبهم ولتخزق الكتب

قال عيسى بن مودود:

مزق التقويم والزيج  
فقد بان الخفاء  
إنما التقويم والـ  
يج هواء وهباء

قلت للبعثة ابـرا  
م ومنـع وعطـاء  
ومتى ينزلن في المـ  
يزان يستـوي الهوا  
وتثير الرـمـل حتـى  
يمتلئ منه الفضـاء  
ويعـم الأرض خسـف  
وخراب وبـلاء  
ويصير القـاع كالقـ  
ف وكالطـود العـراء  
وحكمتم فأبـى الحـا  
كم إلا ما يشـاء  
مأتى الشرع ولا  
جاءت بهذا الأنبيـاء  
فبقيتم ضحكـة تـضـ  
حك منها العـلماء  
حسبكم خـزياً وعـارا  
ماتقـول الشعـراء  
ثم ما أطمعكم إلى الـ  
حكـم إلا الأـمـراء  
ليست إذ لم يحسنـوا في الـ  
ـدين ظننا وما أسـاءوا  
فعلى اصـطـرلاب بطـ  
ليموس والزيج العـفـاء  
وعليه الخـزي مـا  
جـادت على الأرض السـماء

ولم يذكر شعر سبط ابن التعاويذي

قال: وفي السابع والعشرين من شوال توفي محمد أبو عبد الله بن بري ابن عبد الجبار النحوي، وكان آية في النحو ثقة عالما صالحا، مبلدا في أمر دنياه حدث عن ابن الخطاب، ومرشد بن صادق وغيرهما.

قال العماد: وفي هذه السنة جاء نعي أتابك محمد بن أتابك إيلدكز المعروف بالبهلوان، وهو الذي كان نزل على خلط في العام الماضي، وكانت حياته متصلة الجد والجدى، واضطربت من بعده تلك الممالك، واختربت أصفهان وإلى اليوم من سنة أربع وتسعين ما وضعت الحرب أوزارها، وتولى بعده أخوه قزل أرسلان، فأزال مهابة الملك السلجوقي، وسلك نهج السعيد الشقي، إلى أن ذهب، فاتضع الملك، وانقطع السلك، واتسع الهلك، وطمعت خراسان في العراق، وعمت الإفاقة من الآفاق، وأظلمت مطالع الإشراق.

قال: واشتغل السلطان في بقية سنة اثنتين وثمانين بدمشق بالصيد والقنص والانتهاز فيه لبوادر الفرص، وكان يركب إلى تل راهط للصيد بالبزاة والشواهين مع مماليكه الخواص الميامين، وله شاهين يجري كأنه بحر، إذ حلق فشرار، وإن أحرق فجمر، فكم صاد ليوسف يعقوبا، وعقر بإنجاز وعد صيده عرقوبا، فطلبت من السلطان، فقال: أنت للقلم والدواوين، فمالك والبزاة والشواهين؟ فقلت: يكون في ملكي وكل ما يقنصه يأمر لي به المولى، وهذا أربح لي وأنفع وأولى، فقال: نعم، فلما أصبح سير لي سبع عشرة قطعة من طير وحجل، وقال: هذا صيد شاهينك في طلق واحد على عجل، فملكك ذلك الشاهين خمس ست سنين والسلطان يصطاد به ولي قنصه، وله مطلععه، فما زال لي على هذا الحق محافظا، ولهذا النكتة ملاحظا إلى أن أودى الجارح وانقطعت تلك المنائح، فيالله دره من سلطان لم ينس ذكر هذه القضية التي أعاد مزحها جدا، واعتده لي حقامعدا، فدون حقه على مثله أن يؤسف، ومن حقنا بعده أن نتلوا (يا أسفي على يوسف) (٣٥).

قال: ولما دخل شهر رمضان نوع أقسام الإنعام، واتفق أن بعض التجار كانت بضاعته بقلير رفيعة، ومالها نفاق، وهي أكثر من مائة قطعة فحملها إلى الخزانة السلطانية في بضاعات، وقال: خذوها واكتبوا لي بأنها في مصر على بعض الجهات، فاشتريت منه بما كان يرجوه من الربح، وكان من كرم شيم السلطان إذا عرف في خزانته موجودا، أنه لا يستطيع تلك الليلة حتى يفرقه جودا، فقال لي: قد اجتمعت لنا بقلير وعمائم، وقد تقاضتني نفسي بخلعها على أهل الفضل والمكارم، فبدأ بأهل الدين والتقوى، ونجعل لهم أوفر حظ من الجدوى، وكان في الوافدين ومن أهل البلد وعاظ وعلما وحفاظ، فيكون كل يوم بكرة نوبة لمن يتكلم على المنبر، ويذكرنا بالحلل والحرام والبعث والمحشر، ثم يخلع عليهم وعلى القراء فاشتغل مدة اسبوعين بالمواعظ، ووضع المنبر في إيوان القلعة، فقلت: بقي إحضار الفقهاء في المدة الباقية من الشهر، فقال: إنهم يمضي بهم الخلاف إلى التشاجر والتضاغن، فقلت: أنا أضمنهم، ولا يحضر إلا أوقرهم وأرزنهم، فاستدل أول يوم برهان الدين مسعود مدرس الحنفية في المدرسة المعمورة النورية، واعترض عليه العماد الكاتب، وفي اليوم الثاني استدل أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر واعترض عليه قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي، فكان السلطان يجلس في كل يوم لطائفة، فلما دنا العيد أمر بابتياح العمائم وغيرها وصرفها إليهم.

قال القاضي ابن شداد: وفي شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين وقعت وقعات كثيرة بين التركمان والأكراد بأرض نصيبين وغيرها، وقتل من الفئتين خلق عظيم، وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصى بالراوندان، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه، وكان نزولهم عليه في العشر الأول من سنة اثنتين وثمانين، وأعطى برج الرصاص لتميرك في بقية ذلك الشهر، وفي ثاني جمادى الأولى وصل معين الدين من

الراوندان، وقد سلمها إلى علم الدين سليمان، ثم مضى إلى خدمة السلطان.

قال ابن القادسي: وقدم الحاج في عاشر صفر، فأخبروا أن سيف الاسلام أخا صلاح الدين ملك مكة وضرب الدنانير فيها باسم أخيه، ومنع من قولهم حي على خير العمل، وشرط على العبيد أن لا يؤذوا الحاج، وأخبر الحاج أن قفل باب الكعبة تعسر حتى فتح، ولما فتح مات في الدوسة أربعة وثلاثون شخصا من بين رجل وامرأة.

قال: ووصل الخبر أن رجا هبت بالبصرة فكسرت نخيلا كثيرا، وماتت بهائم كثيرة، ووصل الخبر إلى بغداد بقتل البهلوان، وأن القتال وقع هناك، واحترقت المحال، ونهبت الأموال، واقتتل أهل المذاهب، واحترقت مدارس وبقِيَ الأمر على ذلك من سابع محرم إلى ربيع الآخر، فاحصوا من القتلى أربعة آلاف رجل وسبع عشرة امرأة بعد أن احترق أطفال في المهود بالليل، وقام قزل أخو البهلوان، فكف الناس. وكان قزل قد رتب شحنة في إصفهان بعد الفتنة التي وقعت بها، ومعه ألف فارس، فما زال يهذب البلد والرساتيق بالقتل والصلب، وصادرهم وأشير على قزل بأن يلزم أهل البلد سبعين ألف دينار، فقال له الشحنة: أهل البلد فقراء، فقال بعض المصالحه لقزل: مانأخذ إلا من الأغنياء، فوثب عيار فقتل المصلحي، وكان العيار متعلقا على قاضي البلد، فوكل الشحنة بدار القاضي، فجاء ابن الخجندي إلى دار القاضي فحسن له إخراج الموكلين به وتحالفا على إخراج الشحنة من البلد، وأن يقطعوا خطبة السلطان الذي نصب قزل، ففعل ذلك في سابع شوال، ثم كثر القتل في البلد فكل من في قلبه على أحد شر وثب عليه فقتله من رجل أو امرأة، وكان القتل الكثير في أصحاب ابن الخجندي، وكان الحريق والنهب واحراق الدور في أصحاب القاضي، وجرى القتال يوم عرفة، ويوم العيد ودام، وبطل الناس من المعاش، وخربت الأسواق ووقع الغلاء، ومات الناس

من الجوع، وبقي أهل أصفهان على قدم الخوف، وأخذت ثياب الناس  
فلا يتجاسر أحد ان يلبس ثوبا جديدا، والعيارون يأخذون أموال الناس  
مقاواة، وهرب الناس من أصفهان.

## فصل

قال العماد: بما قدره الله تعالى من أسباب نصره الاسلام، ووهن الكفر أن قمص طرابلس رغب في مصافاة السلطان والالتجاء إليه والمساعدة له على أهل ملته بسبب أنه كان تزوج بالقمصية صاحبة ظيرية، وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بالملك لابن أخته هذه وهو صغير فتزوج القمص أمه ورباه، فمات الصغير وانتقل الملك إلى أمه، ثم أنها مدت عينها إلى بعض المقدمين من الغرب فتزوجته وفوضت الملك إليه فشرع يطلب حساب البلاد من القمص،<sup>(٣٦)</sup> فوقع الاختلاف بينهم لذلك فالتجأ القمص إلى ظل السلطان، فصار له من جملة الأتباع فقبله السلطان وقواه، وشد عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين، حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم، وصار بدولة السلطان وملكه يقسم، ومال إليه من الفرنج جماعة، وظهرت له منهم للطاعة طاعة، ودخلت إلى بلادهم من جانبه السرايا، وخرجت بالغنائم والسبايا، وأعطى الدنية في دينه بما استداناه من العطايا، فصار الفرنج يدفعون شره، ويمجدون مكره، فتارة يدارونه، وآونة يبارونه، وللقمص قوم صدق يساعدونه في كل حق وباطل، فبلي منهم أهل الساحل بشغل شاغل، وهذا الملك المجذوم وهو ابن الملك أماري ابن فلك، وهو مري الذي تقدم ذكره، وتوفي أماري في آخر سنة تسع وستين سنة مات نور الدين رحمه الله تعالى، وخلف الملعون هذا الولد المجذوم، فبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا، فلما حضره الموت أوصى لابن أخته بالملك.

قال: وكان ابرنس الكرك أرناط أغدر الفرنجية وأخبثها، وأفحصها عن الردى والرداء، وأبختها وأنقضها للموائيق المحكمة والأيمان المبرمة، وأنكثها وأحنتها، ومعه شرذمة لها شر ذمة، وهي من شر أمة، على طريق الحجاز، ومن نهج الحج على المجاز، وكنا في كل سنة نغزوه، وبالboat

نعروه، ويصيبه منا المكروه، فأظهر أنه على الهدنة، وجنح للسلم، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي الأمن له شاملاً، والقفل من مصر في طريق بلده متواصلاً، وهو يمكن الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق وأخاف السبيل، ووقع في قافلة ثقيلة، معها نعم جلييلة، فأخذها بأسرها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشرك، وحملهم إلى الكرك، وأخذ خيلهم والعدة، وسامهم الشد والشدّة، فأرسلنا إليه وذمنا فعالة، وقبحنا احتياله واغتياله، فأبى إلا الإصرار والإضرار، فنذر السلطان دمه ووفى في إراقة دمه بما التزمه، وذلك في السنة الآتية، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة، وهو في الإستعداد للجهاد، وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصرية، فانتظمت أموره على أحسن قضية.

ومن كتاب فاضلي إلى بعض أخوانه: « كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق، وقد ورد السلطان أعز الله أنصاره للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لا يحصله الخاطر، وقد نهضت به همة لا يرجى غير الله لإنهاضها ونجحت به عزيمة الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها، وباع الله نفسا يستمتع أهل الاسلام بصفقتها، ويذهب الله الشرك بهيتها، وأرجو أن يتمحص عن زبدة، وتستريح الأيدي بعدها عن المخض، وأن يكون الله قد بعث سفتجة نصره الاسلام، وسلطانه قد نهض للقبض».

## ثم دخلت

### سنة ثلاث وثمانين

وهي سنة كسرة حطين، وفتح الساحل والأرض المقدسة

### للمسلمين

قال العماد في كتاب البرق: وهي السنة الحسنة المحسنة، والزمان الذي تقضت على إنتظار إحسانه الأزمنة، وطهر فيه المكان المقدس الذي سلمت لسلامته الأمكنة، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة، وكفى الله شر الشرك، وحكم على دماء الكفرة بالسفك، ونصرت الدولة الناصرية، وخذلت الملة النصرانية، وانتقم التوحيد من التثليث، وشاع في الدنيا بمحاسن الأيام الصلاحية حسن الأحاديث.

ثم ذكر في كتابي الفتح والبرق ما جملته أن قال: فبرز السلطان من دمشق يوم السبت أول المحرم في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم، فلما وصل إلى رأس الماء أمر ولده الملك الأفضل بالإقامة هناك يستدني إليه الأمراء الواصلين والأملاك، ويجمع الأعراب والأعاجم والأتراك، وسار السلطان إلى بصرى، وخيم على قصر السلامة، وأقام على إرتقاب إقتراب الحجاج، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ووالدته أخت السلطان مع جماعة من الخواص، وقد تقدم ذكر غدر ابرنس الكرك وهو على الكرك وأخاف أهله وأخذ ما كان حوله، ورعى زرعهم، وقطع أشجارهم وكرومهم، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك، ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين، وفرقه على أعمال القلعتين، وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك

الأفضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العظام، وعنده الجحافل الحافلة والحواصل الحاصلة، والعساكر الكاسرة، والقساور القاسرة، وهو ينتظر أمرا من أبيه، ويكتب إليه ويقتضيه، وانقضى من السنة شهران، وطال بهم انتظار السلطان، فأنهض منهم سرية سرية، وأمرها بالغاثة على أعمال طبرية، ورتب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبري صاحب حران، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق، وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النجمي، فساروا مدججين، وسروا مدلجين، وصبحوا صفورية، وساء صباح المنذرين، فخرج إليهم الفرنج في حشدهم فآتاهم الله النصر الهني، والظفر السني، وشفوا منهم حنين الحنايا، وأدركوا فيهم منى المنايا، وفازوا وظفروا، وقتلوا وأسروا، وهلك مقدم الإسمتار، وحصل جماعة من فرسانهم في قبضة الأسار، وأفلت مقدم الداوية وله حصاص، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص، وعادوا سالمين ساليين غانمين غالبين، فكانت هذه باكورة البركات، ومقدمة مابعتها من ميامن الحركات، وجاءتنا البشرية، ونحن في نواحي الكرك والشوبك، فسار السلطان ووصل السير بالسرى، وخيم بعشتر، والقدر يقول له تعيش وترى، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى، وامتد العسكر فراسخ عرضا وطولا، وملا بالملا حزونا وسهولا، ومارأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر، ولا أكثر للكفر ولا أكثر، وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض، وما شاهده إلا من تلا: (ولله جنود السموات والأرض) (٣٧).

وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدجج في ليل العجاج مدلج، ولما تم العرض، حسم الفرض، وسالت بأفلاك السماء والأرض، وتعين الجهاد، وتبين الاجتهاد، ثم رتب السلطان للعسكر أطلابا، وحزبه أحزابا، وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر عازما على دخول الساحل، فأناخ ليلة السبت على خسفين، ثم سار في الأردن إلى ثغر

الأقحوانة، وأقام هناك خمسة أيام، وقد عين مواقف الأمراء وشعارهم، وأحاط ببخيرة طبرية بحره المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط، ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام عليهم، وسير ذلك الجيش إليهم، علموا أنه جاءهم مالا عهد لهم بمثله، وإن الإيوان كله قد برز إلى الشرك كله، فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا، وانتخوا و دخل القمص معهم بعد أن دخل عليه الملك، ورمى بنفسه عليه، وصفوا راياتهم بصفورية، ولووا الأ لوية، وحشدوا الفارس والراجل والرامي والنابل، ورفعوا صليب الصليبوت، فاجتمع إليه عباد الطاغوت، وضلال الناسوت واللاهوت، ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهل الأقاليم، وصلبوا للصليب الأعظم بالتعظيم، وماعصاهم من له عصا، وخرجوا عن العدد والإحصاء، وكانوا عدد الحصى، وصاروا في زهاء خمسين ألفا أويزيدون، ويكيدون مايكيدون، قد توافوا على صعيد، ووافوا من قريب وبعيد، وهم هناك مقيمون لايريمون، والسلطان في كل صباح يسير إليهم ويشرف عليهم ويراميمهم، وينكي فيهم، ويتعرض لهم ليتعرضوا له ويردوا عن رقابهم سيوفه، وعن شعابهم سيوله، فربضوا ومانبضوا، وقعدوا ومانهضوا، فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف، فلما رأى السلطان أنهم لايرحون، ومن قرب صفورية لاينزحون أمر أمراءه أن يقيموا في مقابلتهم، ويديموا على عزم مقاتلتهم، ونزل هو في خواصه العسسية على مدينة طبرية، وعلم أنهم إذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول إليها، فحينئذ يتمكن من قتلهم، ويجهد في استتصاهم، ثم أحضر الجاندارية والنقابين والخراسانية والحجارين، وأطاف بسورها، وشرع في تخريب معمورها، وأخذ النقابون في النقب في برج فهدهو وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلموه، ودخل الليل، وصباح الفتح مسفر، وليل الويل على العدو معتكر، وامتنعت القلعة بمن فيها من القمصية وبنيتها، ولما سمع القمص بفتح طبرية وأخذ بلده سقط في يده، وخرج عن جلد جلده، وسمح للفرنج بسبده ولبده، وقال لهم: لاقعود بعد اليوم ولابد لنا

من لقاء القوم، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد، وذهبت الطرف  
والتلاد، وما بقي لي صبر، وما بعد هذا الكسر لي جبر.

وكان الملك قد خلفه، ووافقه فما نافقه، ورحل بجمعه وأتباعه  
وشياطينه وأشياعه فمادت الأرض بحركته، وغامت السماء من غيرته،  
ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا ففرح السلطان وقال: جاءنا ما نريد،  
ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل  
مادونه مانع، ولا عن فتحه وازع، واستخار الله تعالى وسار، وعدم القرار،  
وذلك يوم الخميس ثالث عشرين ربيع الآخر، والفرنج سائرون إلى طبرية  
بقضهم وقضيضهم، وهم كالجبال السائرة، والبحار الزاخرة، أمواجهها  
ملتطمة وأفواجهها مزدحمة، فرتب السلطان في مقابلتهم أطلابه، وحصل  
بعسكره قدامهم، وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ وللقوم غيظ،  
وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وهيئت  
دركات النيران، وهئت درجات الجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان،  
فهي (ليلة القدر .خير من ألف شهر. تنزل الملائكة والروح فيها) (٣٨)  
وفي سحرها نشر الظفر يفوح، وفي صباحها الفتوح، فما أهبنا بتلك  
الليلة الفاخرة، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم (فأتاهم الله ثواب الدنيا  
وحسن ثواب الآخرة) (٣٩) وبتنا والجنة معروضة، والسنة مفروضة، والكوثر  
واقفة سقاته والخلد قاطفة جناته، والسلسبيل واضح سبيله، والإقبال  
ظاهر قبيله، والظهور قائم دليله، والله ناصر الاسلام ومديله، وسهر  
السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب، وملاً جعابها  
وكنائنها بالنبال، وكان ما فرقه من النشاب أربعائة حمل، ووقف سبعين  
جهازه في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه، وفرغ نشابه، حتى إذا  
أسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار، ورنّت  
القسي وغنت الأوتار، إذ ذاك، واليوم ذاك، والجيش شاك، وللقيظ عليهم  
فيض، وماللقيظ منهم غيظ، وقد وقد الحر، واستشرى الشر، ووقع الكر  
والفر، والسراب طافح، والظماء لافح، والجو محرق، والجوى مقلق،

ولاؤئلك الكلاب من اللهب لهث، وبالعيث عبث، في ظنهم انهم يريدون الماء فاستقبلتهم جهنم بشرارها، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها، وذلك في يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة ووراء عسكرنا بحيرة طبرية، والورد عد، ومامنه بعد، وقد قطعت على الفرنج طريق الورد، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود، فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين، فكلبوا على ضراوتهم، وشربوا ما في أداوتهم، وشفهوا ماحولهم من موارد المصانع، واستنزفوا حتى ماء المدامع، وأشرفوا على المصير إلى المصارع، ودخل الليل وسكن السيل، وباتوا حيارى، ومن العطش سكارى، وهم على شغف البحيرة بحيرة، وقووا أنفسهم على الشدة، واستعدوا بالعزائم المحتدة، وقالوا: غدا نصب عليهم ماء المواضي، ونقاضيهم إلى القواضي، فأجدوا عزم البلاء، وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء، وأما عساكرنا فإنها اجتأت، ومن كل مايعوقها برئت، فهذا لسنانه شاحذ، وهذا لعنانه آخذ، وهذا سهم مفوق، وهذا سهم موفق، وهذا مكثر للتكبير، ومنتظر للتبكير، وهذا ناج للسعادة، وهذا راج للشهادة فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة، ومن سحر أنفاسها أطفاف الله المتداركة، والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله فهو يمضي نفسه على الصفوف، ويحضهم ويعددهم من الله بنصره المألوف، ويغري المثين بالألوف، وهم بمشاهدته إياهم يجيدون ويجدون، ويصدون العدو ويردون.

وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس حمل في أول الناس، وكان حصانه قوي الراس، فأبعد عن أخوانه، ولم يتابعه أحد من أقرانه، فانفرد به الفرنج فاثبت في مستنقع الموت رجله، وقاتل إلى أن بلغوا قتله، فلما أخذوا رأسه ظنوا أنه أحد أولاد السلطان، وانتقل الشهيد إلى جوار الرحمن، ولما شاهد المسلمون استشهاده وجلده وجلاده، حميت حميتهم، وخلصت لله نيتهم، وأصبح الجيش على تعبيته، والنصر على تليته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النصر،

ووقوع الكسرة، وبرح بالفرنجة العطش وأبت عشرتها أن تتعش، وكان  
النسيم من أمامها والحشيش تحت أقدامها، فرمى بعض مطوعة  
المجاهدين النار في الحشيش، فتأجج عليهم استعارها، وتوهج أوارها  
فبلوا وهم أهل التليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام: في الاصطلاء،  
والاصطلام نار الضرام، ونار الأوام، ونار السهام، فرجا الفرنج فرجا،  
وطلب طلبهم المخرج مخرجا، فكلما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب  
فما برحوا، وهم ظلماء وما لهم ماء سوى ما بأيديهم من ماء الفرند،  
فشوتهم نار السهام وأشوتهم، وصممت عليهم قلوب القسي القاسية،  
وأصممتهم وأعجزوا وأزعجوا، وأخرجوا وأخرجوا، وكلما حملوا ردوا  
وأردوا، وكلما ساروا أو شدوا أسروا وشدوا، وما دبت منهم نملة، ولاذبت  
عنهم حملة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبههم النشاب،  
فعادت أسودهم قنافذ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ،  
فأووا إلى جبل حطين ليعصمهم من طوفان الدمار، فأحاطت بحطين  
بوارق البوارق ورشقتهم الظبي، وفرشتهم على الربي، ووسقتهم الحنايا،  
وقسرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرزايا، ولما أحس القمص  
بالكسرة حسر عن ذراع الحسرة، وأقتال من العزيمة، واحتال في الهزيمة،  
وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطراب الجمر، فخرج بطلبه يطلب  
الخروج، وأعوج إلى الوادي وماود أن يعوج، ومضى كومض البرق، ووسع  
خطا خرقه قبل اتساع الخرق، وأفلت في عدة معدودة، ولم يلتفت إلى ردة  
مردودة، وكان قال لأصحابه: أنا أسبقكم بالحملة، وأفضلكم في الجملة،  
فاجتمع هو ومؤازروه، وجماعة من المقدمين مظافروه، وصحبه صاحب  
صيدا وباليان بن بارزان، وتوامروا على أنهم يحملون، ويبلغون الطعان،  
فحمل القمص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين  
وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين، ففتح لهم طريقا، ورمى من  
أتباعهم فريقا، فمضوا على رؤوسهم ونجوا بنفوسهم، ولما عرف الفرنج أن  
القمص أخذ بالعزيمة، ونفذ في الهزيمة، وهنوا وهانوا، ثم اشتدوا

ومالانوا، وثبتوا على ماكانوا واستقبلوا واستقتلوا واستحلموا وحملوا، ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء، وصبينا ماء الحديد للإطفاء، فزاد في الإذكاء، فحطوا خيامهم على غارب حطين، حين رأونا بهم محيطين، فأعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام، ثم استحر الحرب، واستمر الطعن والضرب، وأحيط بالفرنجة من حواليتهم، ودارت الدوائر عليهم، وترجوا خيرا فترجلوا عن الخيل وجرفهم السيف جرف السيل، وملك عليهم الصليب الأعظم، وذاك مصابهم الأعظم، ولما شاهدوا الصليب سلبيا، ورقيب الردى قريبا، أيقنوا بالهلاك، وأثخنوا بالضرب الدراك، فما برحوا يؤسرون ويقتلون، ويخمدون ويخملون، وللوثوب يخفون، وبالجرح يثقلون، ومن مصارع القتل إلى معاصر الأسر ينقلون، ووصلنا إلى مقدمهم وملكهم وإبرنسهم، فتم أسر الملك وإبرنس الكرك وأخي الملك جفري، وأوك صاحب جبيل، وهنفري، وابن صاحب اسكندرونة، وصاحب مرقية، وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها، ومن الإستبارية معظمها ومن البارونية من أخطأه البوار، فأصابه وساءه الأسار، وأسر الشيطان وجنوده، وملك الملك وكنوده، وجبر الاسلام بكسرهم، وقتلوا وأسروا بأسرهم، فمن شاهد القتلى قال: ماهناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ماهناك قتيل، ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام ماشفي للمسلمين كيوم حطين غليل، فالله عز وجل سلط السلطان وأقدره على ماأعجز عنه الملوك وهداه من التوفيق لامثال أمره، ومن إقامة فرضه للنهج المسلوك، ونظم له في حتوف أعدائه والفتوح لأوليائه السلوك، وخصه بهذا اليوم الأغر، والنصر الأبر، واليمن الأسر، والنجح الأدر، ولو لم يكن له إلا فضيلة هذا اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة، فكيف ملوك العصر في السمو والسوم، غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمه، ولعاقده النصر وقواعده مبرمة محكمة.

ومن عجائب هذه الوقعة، وغرائب هذه الدفعة، أن فارسهم مادام

فرسه سبالما لم يذل للصرعة، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد، ودارك الضرب إليه غير مفيد، لكن فرسه إذا هلك، فرس وملك، فلم يغنم من خيلهم ودوابهم، وكانت ألسوا، ماهو سالم، وماترجل فارس إلا والطن والرمل لركوبه كالم، وغنمنا مالا يحصر من بيض مكنون، وزغف موضون، وبلاد وحصون، وسهول وحزون، وابتذلنا منهم لهذا الفتح كل إقليم مصون، وذلك سوى ما استبيح من مال حزون، واستخرج من كنز مدفون، وصحت هذه الكسرة، وتمت هذه النصره يوم السبت، وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد، وكانوا أسودا فعادوا من النقد، فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد، ومانجا من أولئك الأعداء إلا أعداد، وامتلا الملأ بالأسرى والقتلى، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى، وقيدت الأسارى في الجبال، واجبة القلوب، وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب، وحطت حطين تلك الجيف عن متنها، وطاب نشر النصر بنتنها، وعبرت بها فألفيتها محل الإعتبار، وشاهدت مافعل أهل الإقبال بأهل الإدبار، وعاينت أعيانهم خبرا من الأخبار، ورأيت الرؤوس طائرة، والنفوس باثرة، والعيون غائرة، والجسوم رسمتها السواني، والرسوم درستها العواني، وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء عمرة ممزقة بالمازق، مفصلة المفاصل، مفرقة المرافق، مفلقة المفاقر، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطعة الهام، موزعة الأقدام مجدوعة الأناف، منزعة الأطراف، مفقوءة العيون، مبعوجة البطون، منصفة الأجساد، مقصفة الأعضاء، مقلصة الشفاه، مخلصه الجباه، سائلة الأحداق، مائلة الأعناق، عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح، كالأحجار بين الأحجار عبرة لأولي الأبصار، ولما أبصرت خدودهم ملصقة بالتراب، وقد قطعوا أرابا تلوت قول الله تعالى: (ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) (٤١).

فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث، وما ألهب عذبات العذاب في تلك الجثث، وما أحسن عمارات القلوب بقبيح ذلك الشعث، وما أجزأ

صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث، هذا حساب من قتل، فقد حصرت السنة الأمم عن حصره وعده، وأما من أسر فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشده، ولقد رأيت في الحبل الواحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس، وهناك العتاة عناة، والعداة عراة، وذوو الأسرة أسرى، وأولوا الأثرة عثرى، والقوامص قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح رخائص، ووجوه الداوية عوابس، والرؤوس تحت الأحامص، فكم أصيد صيد، وقائد قيد وقيد، ومملك مملوك، وهاتك مهتوك، وحر في الرق ومبطل في يد المحق.

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وأهلك دونه الطاغوت، وهو الذي إذا انصب وأقيم ورفع سجد له كل نصراني وركع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم، وقد غلفوه بالذهب الأحمر، وكللوه بالدر والجوهر، وأعدوه ليوم الروع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولايسع أحدهم عنه التخلف، وللمتخلف عن أتباعه في نفسه التصرف، وأخذهم عندهم أعظم من أسر الملك، وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك، فإن الصليب السليب ماله عوض، ولاهم في سواه غرض، والتأله له عليهم مفترض، فهو إلههم، تعفر له جباههم، وتسبح له أفواههم، يتغاشون عند إحضاره، ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهده، ويتواجدون إذا وجدوه، ويبدلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج، بل صاغوا على مثله صلبانا يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم، ويشهدونها، فلما أخذ هذا الصليب عظم مصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيمًا، والموقف المنصور كريماً، فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب، فهلكوا قتلاً وأسراً، وملكوا قهراً وقسراً.

ولما صح الكسر، وقضي الأمر، وتمكن النصر، وسكن البحر، ضرب

السلطان في تلك الحومة دهليز السرادق، وتوافت إليه حماة الحقائق، ونزل السلطان وصلى للشكر وسجد، وجدد الإستبشار بها وجد، وأحضر عنده من الأسارى الملك والبرنس وأجلس الملك بجانبه.

وقال في كتاب الفتح: وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى، وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى، فقدم بداية مقدم الداوية، وعدة كثيرة منهم ومن الإستبارية، وأحضر الملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جبيل وهنفري والإبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو أول من وقع في الشرك، وكان السلطان نذر دمه، وقال لأعجلن عند وجدانه عدمه، فلما حضر بين يديه أجلسه إلى جنب الملك والملك بجانبه، وقرعه على صدره، وذكره بذنبه، وقال له: كم تحلف وتحنث، وتعهد وتنكث، وتبرم الميثاق وتنقض، وتقبل على الوفاق ثم تعرض؟ فقال الترجمان عنه: إنه يقول: قد جرت بذلك عادة الملوك، وما سلكت غير السنن المسلوك، وكان الملك يلهث ظمأ، ويميل من سكرة الرعب منتشياً، فأنسه السلطان وحاوره، وفثأ سورة الوجل الذي ساوره، وسكن رعبه وأمن قلبه، وأمر له بهاء مثلوج فشربه، وأطفأ به لهبه، ثم ناول الملك الإبرنس القدح فاستشفه ويرد به لهفه، فقال السلطان للملك: لم تأخذ في سقيه مني إذنا، فلا يوجب ذلك له مني أمناء، ثم ركب وخلاهما وبنار الوهل أصلاهما، ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه، وركزت أعلامه وبيارقه، وعادت إلى الحمى عن الحومة فيالقه، فلما دخل سرادقه استحضر الإبرنس فقام إليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه، وحين صرع أمر برأسه فقطع، وجر برجله قدام الملك حتى أخرج، فارتاع الملك وانزعج، فعرف السلطان أنه خامره الفزع، وساوره الهلع، وسامر الجزع، فاستدعاه واستدناه، وأمنه وطمنه، ومكنه من قربه وسكنه، وقال له: ذاك رداءته أردته، وغدرته كما تراه غادرته، وقد هلك بغيه وبغيه، ثم جمع الأسارى

المعروفين، وسلمهم إلى والي قلعة دمشق الناصح الغيدي، فقال لهم: انتم تحت قيدي، وسلمهم إلى أصحابه فتسلمتهم الأيدي، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفي بن القابض في دمشق بوصولهم، ويحتاط عليهم في أغلالهم وكبوتهم، فتفرق العسكر بمن ضمته أيدي السبي أيدي سبأ، وهادتهم الوهاد والربى.

قال: ولما أصبح السلطان يوم الأحد استقام على الجدد وخيم على طبرية، وراسل القمصية وأخرجها من حصنها بالأمان، ووفى لها وللفرسان بنيتها بشروط الأيمان، فخرجت بهاها ورحالها ونسائها ورجالها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القمص بهاها وحالها، وولى طبرية قايماز النجمي، وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل عوف والحياينة والسواد، وتناصف الجولان، وما يقربها إلى بلد حوران، فخلصت المناصفات، وصفت الصفات وأمنت الآفات، هذا والسلطان نازل ظاهر طبرية، وقد طب البرية، وعسكره قد طبق البرية، فلما أصبح يوم الإثنين بعد الفتح بيومين طلب الأسارى من الداوية والإستبارية، وقال: أنا أظهر الأرض من هذين الجنسيتين النجسين، فما جرت عادتهما بالمفاداة، ولا يقلعان عن المعادة، ولا يجذمان في الأسر، وهما أخبت أهل الكفر، فتقدم بإحضار كل أسير داوي واستباري ليمضي فيه حكم السيف، ورأى البقيا عليه عين الحيف، ثم علم أن كل من عنده أسير لا يسمح به، وأنه يضمن بعطبه، فجعل لكل من يأتيه بأسير منها من الدنانير الحمر خمسين، فأتوه في الحال بمئين، فأمر بإعطابهم، وضرب رقابهم، ومحو حسابهم، وكان بحضرته جماعة من المتطوعة المتورعة، والمتصونة المتصوفة، والمتعممة المتصرفة، ومن تمت له المعرفة بالزهد والمعرفة، فسأل كل واحد في قتل واحد، وسل سيفه وحسر عن ساعده، والسلطان جالس، ووجهه باشر والكفر عابس، والعساكر صفوف، والأمراء في السباطين وقوف، فمنهم من فرى وبرى، فشكر ومنهم من أبى ونبا وعذر، ومنهم من يضحك

منه، وينوب سواه عنه، وشاهدت هناك الضحوك القتال، ورأيت منه القوال الفعال، فكم وعداً أنجزه، وحمداً أحرزه، وأجراً استداهه بدم أجراه، وبراً عنق إليه بعنق براه وسير ملك الفرنج وأخاه وهنصري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعهم السجون، وتستبدل حركاتهم بالسكون، وتفرقت العساكر بما حوت أيديهم من السبي وسبق بهم إلى البلاد الناس ولم يقع على عددهم القياس، فكتب إلى الصفي بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عنق من يجده من الداوية والإسبترية، فامتثل الأمر في إرهابهم، وضرب أعناقهم، فما قتل إلا من عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم، وما أسلم إلا آحاد حسن إسلامهم، وتأكد بالدين عزامهم.

قال العماد: ومازلت أبحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم الإبرنس، حتى حدثني الأمير العزيز عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس، وهو ذو البيت الكبير، والحسب الجليل، وكان جده صاحب إفريقية والقيروان، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريب من هذا الزمان، ذكر أن الأجل الفاضل حدثه أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حران بعد المرضة التي صار بها كل قلب عليه حران، وذلك في سنة اثنتين وثمانين، وهو من عقابيل سقمه لا يفارق الأئين، فقلت له: مامعناه قد أيقظك الله وما يعيذك من هذا السوء سواه، فأندر أنك إذا أبلت من هذا المرض، تقوم بكل ماله من المفترض، وأنت لا تقاتل من المسلمين أحداً أبداً، وتكون في جهاد أعداء الله مجتهداً، وأنت إذا نصرك الله في المعترك وظفرت بالقومص وإبرنس الكرك تتقرب إلى الله بإراقة دمها، فما يتم وجود النصر إلا بعدمهما، فأعطاه يده على هذا النذر، ونجاه الله ببركة هذا العذر من الذعر، وخلصه إخلاصه في مرضاة الله، فأبل من مرضته، واستقل بنهضته، واستقبل السنة القابلة بسنة الغزو وفريضته، ثم جرى من مقدمات الجهاد ونتائجها ماجرى، وخيم السلطان في جمع الاسلام بعشتر، وركب يوماً في عسكره وعزم على نشر القساطل، وطى

المراحل، ودخول الساحل والقذف بالحق على الباطل، فبدأ بلقاء الطلعة المباركة من الأجل الفاضل، فقال له ليكن نذرك على ذكرك، واستزد نعمة الله عنده بمزيد شكرك، ولا تحط غير قمع أهل الكفر بفكرك، فما أنقذك الله من تلك الورطة، وأنعشك من تلك السقطة، إلا ليوفر حظك من هذه الغبطة، فتوكل على الله عازماً، وجاز الأردن جازماً، وأرعب جأش الكفر وكسر جيوشه، وثل عروشها، ووقع في الشرك أبرنس الكرك فوفى بضرب عنقه نذره، وأما القومص فإنه أخذ في الملتقى بالهزيمة حذره، ولما وصل إلى طرابلس أخافه في منامه القدر، وفجأة في صفوه الكدر، وتسلمه مالك إلى سقر.

## فصل

هذا الذي تقدم من وصف كسرة حطين، هو عين ما ذكره عماد الدين رحمه الله في كتابيه الفتح والبرق، اختصرته منهما، وهو مطول فيهما، وقد وقفت على كلام غيره في ذلك فأحببت إيرادها على وجهه لما فيه من شرح ماتقدم وتقويته، وربما اشتمل على زيادات من فوائده تتعلق بذلك لم يتعرض العماد لها، أو مخالفة لبعض ما ذكره.

قال القاضي أبو المحاسن بن شداد: لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على قصد الكرك، فسير إلى حلب من يستحضر العسكر، وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض الكرك منتظرا لإجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارة على ما في طريقهم من البلاد الساحلية، ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر، ومعه بنت الملك المظفر، وما كان له بالديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية، بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض انطاكية وبلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد مات ووصى لابن أخيه لاون بالملك، وكان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطان فأمره بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد نائزته، فوصل تقي الدين حلب، ونزل في دار العفيف بن زريق، وانتقل إلى دار طمان، وفي تاسع صفر خرج بعسكر حلب إلى حارم ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهممل، وعاد السلطان فوصل إلى السواد ونزل بعشرا سابع عشر ربيع الأول، ولقيه ولده الأفضل، ومظفر الدين، وجميع العساكر، وكان تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي من الفرنج ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد، فصالحهم وتوجه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة، فسارت العساكر الشرقية في خدمته، وهم عسكر الموصل يقدمه مسعود ابن الزعفراني، وعسكر ماردين إلى أن أتوا عشرا، فلقبهم السلطان

وأكرمهم، ثم عرض السلطان العساكر منتصف ربيع الآخر على تل يعرف بتل تسييل، ورتبهم واندفع قاصدا بلاد العدو في وسط نهار الجمعة، وكان أبدأ يقصد بوقعاته الجمع لاسيما أوقات صلاة الجمعة، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة، وبلغه أن الفرنج اجتمعوا في مرج صفورية بأرض عكا فقصده نحوهم للمصاف معهم، فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظرا أن الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من منزلهم، فنزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حالها قبالة وجه العدو، ونازل طبرية وزحف عليها، فهجمها وأخذها في ساعة من نهار، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل، وامتنعت القلعة وحدها، فرحل الفرنج وقصدوا طبرية للدفع عنها، فأخبرت الطلائع الاسلامية الأمراء بحركة الفرنج، فسيروا إلى السلطان من عرفه ذلك، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها، ولقي العسكر هو و من معه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليل بين الفئتين، فباتتا على مصاف شاكيتين في السلاح إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكران وتصادما، وذلك بأرض قرية تسمى اللوييا، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهم الظلام، وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة والأمور الجسيمة ما لم يحك عن من تقدم، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة، وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه، فطلب كل من الفئتين مقامه، وعلمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس، معدومة النفس، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد القوم ولاينجيهم إلا الله، وكان الله قد قدر نصر المسلمين فيسره، وأجراه على وفق ما قدره، فحملت الأطلاب الاسلامية من الجوانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين ( وكان حقا علينا نصر المؤمنين )<sup>(٤١)</sup>، وكان القمص ذكي القوم

والمعهم، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن  
مخاشنة جنسه عن يقينه، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ  
طريقه نحو صور، وتبعه جماعة من المسلمين فنجوا وحده، وأمن الإسلام  
كيدته، واحتاط أهل الإسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب،  
فانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد،  
واعتصمت الطائفة الأخرى بتل حطين، وهي قرية عنده، وعندها قبر  
النبي شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون على التل، وأشعلوا  
حوطهم النيران، وقتلهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون  
للأسر خوفا من القتل، فأسر مقدومهم، وقتل الباقيون وأسروا، وكان  
الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفا على نفسه.

ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا ومعه طناب.  
خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرحهم وحده بخذلان وقع عليهم، وأما  
القمص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب  
فأهلكه الله بها، وأما مقدمو الاستتارية والداوية فإن السلطان اختار  
قتلهم، فقتلوا عن بكرة أبيهم، وأما البرنس أرناط، فكان السلطان قد  
نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قفل من الديار  
المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم،  
فناشده الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال: ما يتضمن  
الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقال: قولوا لمحمدكم  
يخلصكم، وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن  
ظفر به قتله، فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس في دهليز الخيمة  
فإنها لم تكن نصبت، والناس يتقربون إليه بالأسارى، وبمن وجدوه من  
المقدمين، ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسرورا شاكرا لما أنعم الله به  
عليه، ثم استحضر الملك كي وأخاه جفري والبرنس أرناط، وناول الملك  
شربة من جلاب بثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش،  
ثم ناول بعضها البرنس أرناط، فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت

الذي تسقيه، وإلا أنا ماسقيته، وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء من أسره أمن، فقصد بذلك الجري على مكارم الأخلاق، ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئاً ثم عاد استحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، فأعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس أرناط، وأوقفه على ما قال، وقال: ها أنا انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم، ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل، ثم سل النمجة وضربه بها فحل كتفه، وتم عليه من حضر وعجل الله بروحه إلى النار، فأخذ ورمى على باب الخيمة، فلما رآه الملك قد أخرج على تلك الصورة لم يشك في أنه يثني به، فاستحضره وطيب قلبه، وقال: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه جاوز حده فجرى ماجرى، وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور، وأكمل حبور، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل، حتى طلع الصبح في يوم الأحد، فنزل رحمه الله على طبرية، وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قلت: وذكر محمد بن القادسي في تاريخه أنه ورد في هذه السنة كتب إلى بغداد في وصف هذه الواقعة، منها كتاب من عبد الله بن أحمد المقدسي يقول فيه: «كتبت هذا الكتاب من عسقلان يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسة» وفيه: «ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ماوفينا بعشر نعمته التي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم، فإننا خرجنا إلى عسكر صلاح الدين، وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر وإربل، فجمع صلاح الدين الأمراء وقال: هذا اليوم الذي كنت أنتظره، وقد جمع الله لنا العساكر، وأنا رجل قد كبرت، وما أدري متى أجلي، فاغتنموا هذا اليوم وقاتلوا الله تعالى لامن أجلي فاختلفوا في الجواب، وكان رأي أكثرهم لقاء الكفار، فعرض جنده ورتبهم وجعل تقي الدين في الميمنة ومظفر الدين في الميسرة، وكان هو في القلب، وجعل بقية العسكر في الجناحين، ثم ساروا على مراتبهم

حتى نزلوا الأعداء، فتركوا بها أثقالهم، وساروا حتى نزلوا بكفر سبت فأقاموا يومين ينتظرون أن يبرز لهم الكفار، وكان عسكر الكفار على صفورية، فلم يبرزوا فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية، فتقدم فرسانه وحماته ورماته والنقابون فدخلوا تحت الحصن، فلما تمكن النقب منه انهال من غير وقود نار، ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس، وأصبحوا يوم الجمعة فشرعوا في نقب القلعة فلما كان وقت الصلاة جاء الخبر أن الكفار قد توجهوا إلينا، فارتحل صلاح الدين على صفوفه فلقبهم، ثم لم يزالوا يتقدمون حتى صار المسلمون محيطين بهم، وصار قلب المسلمين خلفهم، فتراموا ساعة، وبات كل فريق على مصافهم، ثم أصبحوا فسار الكفار يقصدون طبرية والمسلمون حولهم يلحون عليهم بالرمي، فاقتلع المسلمون منه فوارس، وقتلوا خيالة ورجالة، فانحاز المشركون إلى تل حطين فنزلوا عنده ونصبوا الخيام، وأقام الناس حولهم إلى أن انتصف النهار، وهبت الرياح فهجم المسلمون عليهم، فانهزموا لايلوون على شيء، ولم يفلت منهم إلا نحو من مائتين، وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفا، وقيل ثلاثة وعشرين ألفا، لم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال إلا قليلا، وكان الذي أسر الملك هو درباس الكردي وغلان الأمير إبراهيم المهراني أسر الإبرنس، وقتل صلاح الدين الإبرنس بيده لأنه كان قد غدر، وأخذ قافلة من طريق مصر، ثم عاد صلاح الدين إلى طبرية فأخذ قلعتها بالأمان، ثم ضرب أعناق الأسارى الذين كانوا في العسكر، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم».

قال: وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح التي ماسمع بها قط، وهذه ذكر بعضها مختصرا مع أنه لا يقدر أحد يصف ذلك لأن الأمر أكبر من ذلك الذي يبشر به المسلمون: «إن مدينة طبرية فتحت بالسيف وأخذت قلعتها بالأمان، واجتمع عسكر الأفرنج جميعهم والتقوا بالمسلمين عند

قبر شعيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقتل من الأفرنج ثلاثون ألفاً، وكان عدد الأفرنج ثلاثة وستين ألفاً بين فارس وراجل، وأسر منهم ثلاثون ألفاً، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، واستغنى عسكر الاسلام من الأسرى والأموال والغنائم، بحيث لا يقدر أحد يصف ذلك، وما سلم من عسكر الفرنج سوى قمص اطرابلس مع أربعة نفر، وهو مجروح ثلاث جراحات، وأخذ جميع أمراء الفرنج، وكم قد سبي من النساء والأطفال يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة ببيعة واحدة، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابتتان بثمانين ديناراً، وأخذ صليب الصلبوت فعلق على قنطارية منكسا، ودخل به القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق، وكل يوم يرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال مالم يجيء من يشتريها من كثرة السبي والغنائم.

قال: وفي كتاب آخر: « وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفاً فلم يسلم منهم سوى ألف، وقتل الباقون واستأسروهم، وكذلك الملوك.»

قلت: وبلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير، وكان محتاجاً إلى نعل فباعه بها، فقيل له في ذلك فقال: أردت أن يذكر ذلك، ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم واحد بنعل والله الحمد، وما أحسن ما قال أبو الحسن ابن الذروي من قصيدة:

شرحت صلاح الدين بالسمر والظبي  
من المجد معنى كان من قبل يغمض  
وما كاد جيش الروم يبرم كيده  
إلى أن سرت منك المهابة تنقض  
حيث تغور المسلمين فأصبحت  
تغور بأمواله الحديد تمضمض

أسرت ملوك الكفر حتى تركته  
ومافيه عرق عن قوى النفس ينبض

وكان القاضي الفاضل غائبا عن هذه الكسرة بدمشق، فلما بلغته كتب إلى السلطان: «ليهن المولى إن الله قد أقام به الدين القيم، وإنه كما قيل أصبحت مولاي ومولى كل مسلم، وإنه قد أسبغ عليه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين: ملك الدنيا وملك الآخرة، كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها، والدموع، لم تمسح من خدودها، وكلما فكر الخادم أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه إن الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه: إنه الواحد، جدد الله شكرا تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جفنه، وجزا يوسف خيرا عن إخراجة من سجنه، والماليك ينتظرون أمر المولى، فكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق قد عول على دخول حمام طبرية:» تلك المكارم لاقعبان من لبن» وذلك الفتح لاعمان واليمن، وذلك السيف لاسيف ابن ذي يزن، وللأسنة بعد في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل».

وللعباد رحمه الله قصائد يذكر فيها وقعة حطين، لم يذكر منها شيئا هنا بل ذكر بعضها عند ذكر فتح نابلس، وبعضها عند فتح القدس، فنقلت إلى هذا المكان منها ما يتعلق به والباقي يذكر في مكانه قال:

يايوم حطين والأبطال عابسة  
وبالعجاجة وجه الشمس قد عسا  
رأيت فيه عظيم الكفر محتقرا  
معفرا خده والأنف قد تعس  
ياظهر سيف برى رأس البرنس فقد  
أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا  
وغاص إذ طار ذاك الرأس في دمه  
كأنه ضفدع في الماء قد غطسا

ما زال يعطس مزكوما بغدرتيه  
والقتل تشميت من بالغدر قد عطسا  
عري ظباه من الأغما دم هرقة  
دما من الشرك رد إهابه وكسا  
من سيفه في دماء القوم منغمس  
من كل من لم يزل في الكفر منغمسا  
أنفاهم قتلهم والأسر فانتكسوا  
وبيت كفرهم من خبثهم كنسا

وقال أيضا يخاطب صلاح الدين رحمه الله:

سحبت على الأردن ردنا من القنا  
ردينية ملدا وخطية ملسا  
حططت على حطين قدر ملوكهم  
ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا  
ونعم مجال الخيل حطين لم تكن  
معاركها للجرد ضرسا ولادها  
غداة أسود الحرب تعتقل القنا  
أساود تبغي من نحور العدا نسا  
أتوا شكس الأخلاق خشنا فلينت حد  
سدود الرقاق الخشن أخلاقها الشكسا  
طردتهم في الملتقى وعكستهم  
مجيذا بحكم العزم طردك والعكسا  
فكيف مكست المشركين رؤوسهم  
ودأبك في الإحسان أن تطلق المكسا  
كسرتهم إذ صبح عزمك فيهم  
ونكستهم إذ صار سهمهم نكسا  
بواقعة رجت بها الأرض جيشهم  
دمارا كما بست جبالهم بسا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم  
ولم ترض أرض ان تكون لهم رسما  
وطارت على نار المواضي فراشهم  
صلا لا فزادت من خمودهم قبسا  
وقد خشعت أصوات أبطالها فما  
يعي السمع إلا من صليل الطبي همسا  
تقاد بداء الماء الدماء ملوكهم  
أسارى كسفن اليم نطت بها القلسا  
سبايا بلاد الله مملوءة بها  
وقد شريت بخسا وقد عرضت نخسا  
يطاف بها الأسواق لا راغب لها  
لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا  
شكاييسارأس البرنس الذي به  
تندى حسام حاسم ذلك اليسا  
حسامه ماض الغرار لغدره  
وما كان لولا غدره دممه يحسى  
فله مما أهدى يد افتكت به  
وأطهر سيف معد ما رجسه النجسا  
نسفت به رأس البرنس بضرية  
فأشبهه رأسي رأسه العهن والبرسا  
تبوغ في أوداجه دم بغيه  
فصال عليه السيف يلحسه لحسا  
بعثت أمام أمة النار نحوها  
أمامهم أرناطها ذلك الجبسا  
ولله نص النصر لجاء لنصله  
فلاقونسا أبقى لرأس ولا قنسا  
حكى عنق الداوي صل بضرية  
طريير الشبا عودا بضرابه حسا  
أيوم وغى تدعوه أم يوم نائل  
وأنت وهبت الغانمين به الخمسا

وقد طاب ريانا على طبرية  
في أطيارها ويا أحسنها مرسى

وللشهاب فتیان الشاغوري من قصيدة سيأتي بعضها في مدح صلاح  
الدين رحمه الله:

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم  
يتذامرون على متبون الضمير  
أوردت أطراف الرماح صدورهم  
فولغن في علق النجيع الأحمر  
فهناك لم ير غير نجم مقبل  
في أثر عفرية ترجيم مدبر  
فمن الذي من جيشهم لم يختتم  
ومن الذي من جمعهم لم يؤسر  
حتى لقد بيعت عقائل أرهقت  
بالسبي بالثمن الأحس الأحر  
سقت الممالك الكرام ملوكهم  
كأسابه سقت اللثيم الهنفر  
وعجمت عود صليبهم فكسرتة  
وسواك ألفاه صليب المكسر  
أغلى الأداة من أسرت وأرخصت  
بيض الصوارم من نهاب العسكر  
وجعلت شرق الأرض يحسد غربها  
بك فهوداع دعوة المستنصر  
لا يعد منك المسلمون فكم يدا  
أوليتهم معروفاً لم تنكر  
أمنت سرهم وصنت حرهم  
ودرات عنهم قاصمات الأظهر  
مما أن رآك الله إلا أممرا  
فيهم بمعروف ومنكر منكر

متواضعاً لله جل جلاله  
وبك اضمحلست سطوة المتكبر  
لم يخل سمع من هناء مهنيء  
للمسلمين وممن سماع مبشر  
واستعظم الأخبار عنك معاشر  
فاستصغروا ما استعظموا بالمخبر  
مضت الملوكة ولم تنل عشر الذي  
أوتيته من منجح أو مفخر

وقال أبو الحسن علي بن الساعاتي في فتح طبرية :

جلت عز ماتك الفتح المبينا  
فقد قرت عيون المؤمنيننا  
رددت أخيراً لذة الاسلام لما  
غدا صرف القضاء بها ضمينا  
وهان بك الصليب وكان قدما  
يعزز على العوالي أن يهونا  
يقاتل كل ذي ملك رياء  
وأنت تقاتل الأعداء ديننا  
غدت في وجنة الأيام خالاً  
وفي جيد العلاء عقداً ثميننا  
في الله كم سرت قلبوبنا  
ويا لله كم أبكت عيوننا  
وماطبرية إلهه دي  
ترفع عن أكف اللامسينا  
حصان الذيل لم تقذف بسوء  
وسل عنها الليالي والسنيننا  
فضضت ختامها قسراً ومن ذا  
يصد الليث أن يلج العريننا

لقد أنكحتها صمم العوالي  
فكان نتاجها الحرب الزبونا  
هناك ندى أهل الأرض طرا  
سواك ومعقل أعيال القرونا  
قست حتى رأيت كفو أفلانتي  
وغاية كل قاس ان يلينا  
قضيت فريضة الاسلام منها  
وصدقت الأماني والظنوننا  
تهز معاطف القدس ابتهاجا  
وترضى عنك مكة والحجوننا  
فلو أن الجهاد يطبق نطقنا  
لنادتك أدخلوها آميننا  
جعلت صباح أهلها ظلاما  
وأبدلتك الزئير بها أنينا  
تخال حماة حوزتها نساء  
لموضون الحديد مقنعينا  
ليبيضك في جماجم غناء  
لذيذ علم الطير الحنينا

تميل إلى المثقفة العوالي  
فهل أمست رماحاً أم غصوننا  
يكاد النقع يذهلها فلولا  
بروق القضا ضبات لمادهينا  
فكم حازت قدود قناك منها  
قدودا كالقنالوننا ولينا  
وغيدك الجأذر أنسات  
كغيد نذاك ابكارا وعوننا  
ولما باكرتها منك نعمى  
بنان تفضح الغيث الهتوننا

أعدت بها الليالي وهي يبض  
وقد كانت بها الأيام جونا  
فليس بعادم مرعى خصيبا  
أخو وسغب ولا ماء معيننا  
فلا عدم الشام وساكنوه  
ظبي تشفي بها الداء الدفينا  
سهاد جفونها في كل فتح  
سهاد يمنح الغمض الجفونا  
فاللم بالسوا حل فهي صور  
إليك وألحق الهام المتوننا  
فقلب القدس مسرور ولولا  
سطاك لكان مكتبا حزيننا  
أدرت على الفرنج وقد تلاقفت  
جموعهم عليك رحى طحونا  
ففي بيسان ذاقوا منك بؤسا  
وفي صفد أتوك مصفديننا  
لقد جاءتهم الأحداث جمعا  
كأن صروفها كانت كميننا  
وخانهم الزمان ولا ملام  
فلسنت بمبغض زمننا خونا  
لقد جردت عزمنا نصريا  
يحدث عن سنه طهور سينا  
فكنت كيوسف الصديق حقا  
له هوت الكواكب ساجديننا  
لقد أتعبت من طلب المعالي  
وحاول أن يسوس المسلمينا  
وأن تلك آخر أرواحك ذم  
فإن محمد أفي الآخرينا

قال ابن أبي طي: حدثني والدي عن أحد التجار قال: كنت بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمسة، فزرت الشيخ عمر الملا. فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ رأيت البارحة في النوم كأني بأرض غريبة لأعرفها، وكأنها مملوءة بالخنازير، وكأن رجلا في يده سيف، وهو يقتل الخنازير، والناس ينظرون إليه، فقلت لرجل: هذا عيسى بن مريم، هذا المهدي، قال: لا، فقلت: من هذا؟ قال: هذا يوسف مازادني على ذلك، قال: فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا، وقالوا: إنه سيقتل النصارى رجل يقال له يوسف، وحدثت الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب، وكان المستنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة فحدث بعض الجماعة عليه، قال: وأنسيت أنا هذه الواقعة، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها، فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله.

قال: وحدثني ظئري من نساء الحلبيين، كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر، قالت: كانت والدة السلطان تخبر أنها أتيت في نومها وفي حامل بالسلطان، فقيل لها: إن في بطنك سيفا من سيوف الله تعالى.

## فصل

### في فتح عكا وغيرها

وهي بالألف الممدودة، ويدل على ذلك أنه يقال في النسبة إليها عكاوي، وقد وجدت ذلك في شعر قديم، ومنهم من يقول عكة بالهاء ومثل ذلك حصن عرقة، وبعضهم يقول عرقا بالألف ونهر تورا، وبعضهم يقول: نهر توره بالهاء.

قال القاضي ابن شداد: ثم رحل السلطان طالبا عكا، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأولى، فأخذها واستنقذ من كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر، والبضائع والتجائر، فإنها كانت مظنة التجار.

وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس وحيفا، وقيسارية وصفورية، والناصرية، وكان ذلك لخلو الرجال بالقتل والأسر.

قال العماد: ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء، والتوحيد ظاهر على التليث، والطيب قد امتاز من الخبيث، ونزل بأرض لوبية عشية، وأعادها بأزهار بنوده، وأنوار جنوده، روضة موشية، ثم أصبح سائرا إلى عكا، فاشينا سره، بارا بأهل الدين بره، وكان أمير المدينة النبوية صلوات الله على ساكنها في موكبه، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سير إلى نصرته من يثري به من يثربه، وهذا الأمير عز الدين أبو فليته القاسم بن المهنا الحسني، قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج، وهو ذو شيبة تقد كالسراج، وما برح مع السلطان مأثور المآثر ميمون الصحبة، مأمون

المحبة، مبارك الطلعة، مشاركا في الوقعة، فما تم فتح في تلك السنين إلا بحضوره، ولا أشرق مطلع من النصر إلا بنوره، فرأيته في ذلك اليوم للسلطان مسائرا، ورأيت السلطان له مشاورا محاورا، وأنا أسير معها، وقد دنبت منهنها ليسمعاني وأسمعها، ولاحت أعلام عكا، وكان يبارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى، وكان عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الاسلام إليها من وعرها وسهلها، ولما أشرفنا عليها مستظهرين أيقنا بفتحها مستبشرين، فما كان فيها من يحميها، فما صدقنا كيف نملكها ونحويها، وظهر على السور أهلها لأجل الممانعة، والثبات على المدافعة، وخفقان ألويتها يشعر بقلوبها الخافقة، وأرواح جلدتهم الزاهقة، ووقفنا نتأمل طولها، ونؤمل حصوها، وخيم السلطان بقربها وراء التل، وانبتت عساكره في الوعر والسهل، وبتنا تلك الليلة وقد هزتنا الإطراب، نقول متى يجتمع الأصباح والأصحاب، فما هجدنا ولاغراراء، ولاوجدنا من الفرح قرارا، والسلطان جالس ونحن عنده، وهو يحض جنده، ويقدم معهم في اقتباس الآراء زنده، ومنا من يستنجز وعده، ومنا من يستميط رفته، ومنا من يواصله بالدعاء، ومنا من يشافهه بالهناء، وأصبح يوم الخميس فركب في خميسه، ووقف كالأسد في عريسه، ووقفنا بإزاء البلد صفوفا، وأطللنا على أطلاله وقوفا، فخرج أهل البلد يطلبون الأمان، ويبدلون الإذعان، فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال، ووهب لهم عصمة الأنفس والأموال، وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم، ويسبي ذريتهم ونساءهم، وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة، فاغتنموا تلك المهلة، وفتح الباب للخاصة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة من ذوي الخصاصة، فإن القوم ما صدقوا من الخوف المزعج، والفرق المحرج، كيف يتركون دورهم بها فيها ويسلمون، وعندهم أنهم إذا نجوا بأنفسهم أنهم يغمون، فلما دخل الجند ركز كل واحد منهم على دار رحه، وأسام فيها سرحه، فحصلوا على دور أخلاها أربابها، وأموال خلاها أصحابها، وكنا لأجل

الأمان نهايها، فطاب لأولئك نهايها، وجعل السلطان للفقير عيسى الهكاري كل ماكان للداوية من منازل وضياع ومواضع ورباع، فأخذها بما فيها من غلال ومتاع، واستخرجوا الدفائن، وولجوا المخازن، وداروا الأماكن، وكذلك بمالك الملك الأفضل وأصحابه، وولاته ونوابه نشوا المحارز، وفتشوا المراكز، واستباحوا الإهراء واجتاحوا الأشياء، وكان السلطان قد فوض عكا وضياعها ومعاقلها وقلاعها إلى ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين علي.

ثم ذكر العباد أنواع ما استولوا عليه من الأموال، ثم قال: ومن جملة ذلك أنهم احتاطوا بغير علمي على دار باسمي، فباعوا منها متاعا بسبعمائة دينار، وأخلوها مما كان فيها آلات وأذخار، وقلدوني المنة في تحصيل تلك الدار، فإنها كانت من أنفس العقار، وسلموها إلى غلام صديق لي يصونها، ويقوم بحفظها والذب عنها، والدفاع دونها، فذكر أن الغلام انتفع من آلتها بعد خلوها بما قيمته سبعون ديناراً، وأن الأولين نقلوا منها من الذخر أوقارا.

قال: وإنما وصفت هذا ليعلم ماغنموه، والتهبوا على حيازته والتهموه، وتصرف الملك المظفر تقي الدين في دار السكر فأفنى قنودها، واستوعب موجودها، ونقل قدورها وأنقاضها، وحوى جواهرها وأعراضها.

وقال في كتاب الفتح: وخلي سكان البلد دورهم، ونخزونهم ومدخولهم، وتركوها لمن أخذها، ونبذوا ما حووه لمن حواها وما نبذها، وافتقر من الفرنج أغنياء، واستغنى من أجنادنا فقراء، ولو ذخرت تلك الخواصل، وحصلت تلك الذخائر، وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر، لكان عدة ليوم الشدائد، وعمدة لنجح المقاصد، فترعت في خضرائها، بل في صفرائها وبيضائها سروح الأطماع، وطال لمستحلبها ومستحيلها الأمتاع بذلك المتاع.

وقال في البرق: وقرىء على السلطان ليلة من كتاب الفتح ونحن بالقدس، يعني هذا المكان، وذلك سنة ثمان وثمانين، فقال السلطان: هذه ربيعة على ثلاثة، اثنان منهم في جوار الرحمة، والآخر باق في مقر العصمة، يعني بالاثنين، الفقيه عيسى، وتقي الدين، وبالآخر الباقي ولده نور الدين.

قال: ولعمري هو كما ذكره، لكن الأفضل ما حصل له ولخواصه بل لذوي اختصاصه واستخلاصه، وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، فجيئنا إلى كنيستها العظمى، فأزحنا عنها البؤسى بالنعمى، وحضر الأجل الفاضل فرتب بها المنبر، والقبلة وهي أول جمعة أقيمت بالساحل بعد يوم الفتح، وكان الخطيب والإمام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي، وولاه السلطان مناصب الشريعة بعكا، تولى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف.

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد بعد فتح عكا يصف كسرة حطين: «صبح الخادم طبرية فافتض عذرتها السيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها بين الأسر والقتل وعاجلهم الأمر، فلم يقدوا على الخداع والختل، وجاء الملك ومن كان معه من كفاره، ولم يشعر أن ليل الكفر قد آن وقت إسفاره، فأضرم الخادم عليها نارا ذات شرار، أذكرت بما أعد الله لهم في دار القرار، فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد، وتسئموا هضبة رجاء أن تنجيهم من حر السيوف الحداد، ونصبوا للملك خيمة حمراء، وضعوا على الشرك عمادها، وتولت الرجال حفظ أطناها، فكانوا أوتادها، فأخذ الملك أسيرا (وكان يوما على الكافرين عسيرا) (٤٢) وأسر الإبرنس لعنه الله فحصد بذره، وقتله الخادم بيده ووفى بذلك نذره، وأسر جماعة من مقدمي دولته وكبراء ضلالتة، وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفا، ولم يبق أحد من الديوية، فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، وتداول فيه القتل والأسر، أصدر الخادم هذه الخدمة من

ثغر عكا والاسلام قد اتسع مجاله، وتصرف أنصاره ورجاله والكفر قد ثبتت أوجاله، ودنت آجاله».

قال العماد: ومن جملة البشائر بكسرة حطين: «ولما أحيط بالقوم أوى ملكهم إلى جبل يعصمه من العوم، فأسمعه السيف (لأعاصم اليوم) (٤٣) واستولى الخلدان عليهم بأسرهم، وبردت أيدي المؤمنين بحر قتلهم وأسرههم، ولم يبق لهم باقية، وغصت بقتلاهم في الدنيا والآخرة أرض الله الواسعة، ونار الله الحامية، فما يظأ من يصل إلى مخيمنا إلا على رمهم البالية وأسر الملك وأخوه وبارونيته ومقدموه ولم يفلت منهم إلا القومص وهو مسلوب، ولا بد أن ندركه فهو مطلوب، وقد كنا نذرنا ضرب رقبة الإبرنس صاحب الكرك الغدار، كافر الكفار، ونشيدة النار، فلما رأناه ضربنا عنقه سريعاً، وسرنا إلى عكا وهي بيضة ملكهم، وواسطة سلكهم، ومركز دائرة كفرهم، ومجمع جمع برهم وبحرهم، فتسلمناها بالأمان، والصخرة المقدسة الآن بنا تصرخ وتستغيث، وعباد الله الصالحون قد وصلت إليهم بوعده الله الصادق المواريث، والبشارة بفتح القدس لا تتأخر، والهمم بعد هذا الفتح السنني على ذلك تتوفر، والحمد لله الذي تتم الصالحات بحمده (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) (٤٤)».

## فصل

في فتح نابلس وجملة من البلاد الساحلية بعد فتح عكا

وطبرية وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك

قال العماد: وأقام السلطان أياما بعد فتح عكا على التل نخيما، وعلى سائر بلاد الساحل مصمما، وكان قد كتب إلى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه، فوصل بعسكره وفتح في طريقه حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، فقصدته من عسكرنا القصاد، ووفد إليه الوفاد، وأمره السلطان بأن يقيم في ذلك الجانب، جامعا للكتائب ليجتمع به الواصلون من مصر الأملون معه بالنصر.

قال: وتوجه عدة من الأمراء والعسكرية إلى الناصرة وقيسارية، والبلاد المجاورة لعكا وطبرية، ومضى كل فريق في صوب، وآبوا بالغنيمة والسبي خير أوب.

قال: فأما الفولة فهي قلعة للداوية حصينة، وفيها ذخائرهم وأموالهم، فلما خرج الداوية منها وقتلوا لم يبق فيها إلا اتباع وغلان فسلموها وجميع مايجاورها، كدبورية وجنين وزرعين والطور وزاد في كتاب الفتح: واللجون وبيسان والقيمون، وجميع مالعكا وطبرية من الولايات، والزيب ومعليا والبعنة واسكندورنة ومنوات.

قال: وتوجه مظفر الدين كوكبري إلى الناصرة فاستباحها، وصفرت صفورية من سكانها، وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف، وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف، واستولى على تلك الشمس والأقمار الكسوف والخسوف، وحيفا بين عكا وقيسارية على البحر.

قال: وأما نابلس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها، كانوا مسلمين، وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين، وهم يجيئون كل عام منهم قرارا، ولا يغيرون لهم شرعا ولا شعارا، فلما عرفوا كسرهم، وأنهم لا يرجون جبرهم، خافوا من مساكنة المسلمين ففرقوا، وكبسهم أهل الضياع في الدور والرباع، وغنموا ما وجدوه من الذخائر والمتاع، وأوقعوا بضعفائهم، وضايقوا الحصون على أقويائهم، وطلبها من السلطان ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو عزيز عند خاله، ملئ بفضله وأفضاله، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها، ونواحيها وقلاعها، فتوجه إليها بعسكره، فأول ما أناخ على سبسطية وفيها مشهد زكريا عليه السلام، وقد اتخذ الأقباء كنيسة منذ فارقه الإسلام، وهو متعبد لهم المعظم، والمشهد المكرم، وقد حجبه بالأستار، وحلوه بالفضة والنضار، وعينوا له مواسم الزوار، وقومته من الرهايين فيه مقيمة، ولا يؤذن في الزيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة، فدخله وحوى مافيه، وأبقى مالا يحسن أن يخلو من مثله المسجد، وفتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلين محرابه، ثم سار إلى نابلس ففتحها بالأمان، واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان، وأجراهم على ما لهم من العمارة والبنيان وبقيت بيده إلى آخر عهده، وعمرت بعدله ورفده.

قال العماد: وأنشدته يوم فتح القدس قصيدة أولها:

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا  
وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا  
ما طبت نفسا ولا استحسنتم بعدكم  
شيئا نفسيا ولا استعذبت لي نفسا  
قلبي وصبري وغمضي والشباب وما  
الفتم من نشاطي كله خلسا

وكيف يصباح أو يمسي محبكم  
وشوقكم يتولاه صباح مسا  
عادت معاهدكم بالجزع دارسة  
وإن معهدكم في القلب مدارسا  
وكنت أحدهم منكم كل داهية  
ومادهانا من الهجران ما حدسا  
لما هدت نار شوقي ضيف طيفكم  
قريته بالكبرى زار مقتبسا  
ورمت تأنيسه حتى وهبت له  
إنسان عيني أفديه فما أنسا  
أنا الخيال نحو لاف الخيال إذا  
ما زارني كيف يلقى من به التبسا  
لهفي على زمن قضيته طربا  
إذ لم أكن من صروف الدهر محترسا  
عسى يعود شبابي ناظرا ومتى  
أرجو نضارة عود للشباب عسا  
وسادن يفرس الأساد ناظره  
فديته شادن للأسد مفترسا  
في العطف لين وفي أخلاقه شوس  
يالين عطفيه جنب خلقه الشوسا

ومنها في المديح:

إن بان لبس مضيئنا لاجئين إلى الـ  
فتى الحسام بن لاجين بنا بلسا  
يميت أعداءه بأسا ونائله  
يحيي رجاء الذي من نجحه أيسا  
مـزق المازق المنسـوج عثيره  
وقدمحا اليوم ليل النقع فانطمسا

لازلت مستويا فوق الحصان وفي  
حصن الحفاظ ومن عاداك منتكسا

وهي طويلة وقد تقدمت منها أبيات في وصف كسرة حطين، وسيأتي  
منها أيضا أبيات عند فتح القدس في مدح السلطان صلاح الدين رحمه  
الله.

ومن كتاب عن السلطان إلى سيف الاسلام أخيه: «كاتبنا أخانا  
العادل أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب، فلما بشر بكسر  
الفرنج وفتح عكا وطبرية، كان قد وصل إلى السواد، فحاز العريش، وزار  
الداروم، وأجفلت قدامه البلاد، ووصل إلى يافا ففتحها عنوة، ثم حصر  
مجدل يابا، فطلبت منه الأمان، وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة بعد  
وهي:

طبرية. عكا. الزيب. معليا. اسكندرونة. تبنين. هونين. الناصرة.  
الطور. صفورية. الفولة. جينين. زرعين. دبورية. عفر بلا. بيسان.  
سبسطية. نابلس. اللجون. أريحا. سنجل. البيرة. يافا. أرسوف. قيسارية.  
حيفا. صرفند. صيدا. بيروت. قلعة أبي الحسن. جبيل. مجدل يابا. جبل  
الجليل. مجدل حباب. الداروم. غزة. عسقلان. تل الصافية. التل الأحمر.  
الأطرون. بيت جبريل. جبل الخليل. بيت لحم. لد. الرملية. قرتيا.  
القدس. صوبا. هرمز. سلع. عفرا. الشقيف.

قال: ولم يذكر ماتخللها من القرى والضياح والأبراج الحصينة الجارية  
مجرى الحصون والقلاع ولكل واحدة من هذه البلاد التي ذكرناها أعمال  
وقرى ومزارع وأماكن ومواضع قد جاسوا خلالها واستوعبوا ثمارها وغلالها.

قال العماد: وما أنشأته من شرح الفتوح وكتبت به إلى الديوان

وبدأت بقوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ (٤٥) الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الخفيف من قبل ومن بعد، وجعل بعد عسر يسرا، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا، وهون الأمر الذي ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا، وخوطب الدين بقوله: ( ولقد مننا عليك مرة أخرى) (٤٦) فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، والأخرى هذه التي عتق فيها من رق الكأبة، فهو قد أصبح حرا، ريان الكبد الحرا، والزمان كهيئته استدار، والحق ببهجته قد استنار، والكفر قد رد ما كان عنده من المتاع المستعار، فالحمد لله الذي أعاد الاسلام جديدا ثوبه، بعد أن كان جديدا حبله، مبيضا نصره، مخضرا نصله، متسعا فضله، مجتعبا شمله، والخادم يشرح من نبا هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم، ما يشرح صدور المؤمنين، ويمنح الحبور لكافة المسلمين، ويورد البشرى بها أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه ، وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما، سخرها الله على الكفار فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خالية، ورأيتها إلى الاسلام ضاحكة، كما كانت من الكفر باكية، فيوم الخميس الأول فتحت طبرية، ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج فكسروا الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة، وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالأمان، ورفعت بها أعلام الإيمان، وهي أم البلاد، وأخت إرم ذات العماد، وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور، وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور، والحديد الكافر الذي كان في يد الكفر يضرب وجه الاسلام، قد صار حديدا مسلما يعوق خطوات الكفر عن الإقدام، وأنصار الصليب وكباره، وكل من المعمودية عمدته والدير داره قد أحاطت به يد القبضة، وغلق رهنه فلا تقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وطبرية

قد رفعت أعلام الاسلام عليها، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبها، وعمرت إلى أن شهدت يوم الاسلام وهو خير يومها، وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها، وطالما ارتجت لموقف الكافر، فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفاً، وأما فرسان الداوية والاستتارية فقد أمضى حكم الله فيهم وقطع بهم سوق نار الجحيم، ورحل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم، وقتل الإبرنس كافر الكفار، ونشيدة النار، من يده في الاسلام كما كانت يد الكليم، والبلاد والمعقل التي فتحت هي: طبرية. عكا. الناصرة. صفورية. قيسارية. نابلس. حيفا. معليا. الفولة. الطور. الشقيف. وقلاع بين هذه كبيرة، والملك المظفر تقي الدين ظفره الله مضايق لصور، وحصن تبين، والأخ العادل سيف الدين نصره الله قد كوتب بالوصول بمن عنده من العساكر لينزل في طريقه على غزة وعسقلان ويجهز مراكب الاسطول المنصورة إلى عكا، وما يتأخر النهوض إلى القدس، فهذا هو أوان فتحه، ولقد دام عليه ليل الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه».

## فصل

في فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها ومجيء المركيس

### إلى صور

قال العماد: أرسل السلطان إلى تبنين ابن أخيه تقي الدين فضايقها، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه فوصل إليها في ثلاث مراحل، ونزل عليها يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى، فراسلوا السلطان، وسألوا الأمان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا، وبذلوا رهائن من مقدميهم، ووفوا بما بذلوا، وتقربوا بإطلاق الأسارى المسلمين، فخرج الأسارى مسرورين، فسر بهم السلطان وسر بهم، وأقرهم وقربهم، وكساهم وحباهم، وأتاهم بعد ردهم إلى مغانيهم غناهم، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه، وملك يربحه، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها، ويعيد بعد عدمها وجودها، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف، ولما خلوا القلعة، وأخلوا البقعة سيرهم، ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الأولى، وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن.

وقال القاضي ابن شداد: فتحها السلطان عنوة، وكان بها رجال أبطال، شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر الله عليهم، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا، فنزل عليها، ومن الغد تسلمها وهو يوم الأربعاء الحادي والعشرون.

قال العماد: سنحت له صيدا فتصدى لصيدها، وكانت همته في

قيدها، وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها، ووصلنا في يومين إلى صيدا إلى منهل فتحها صادين، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صادين، ولما نزلنا من الوعر إلى السهل سهل ماتوعر، وصفا من الأمر ماظن أنه تكدر، فصرفنا الأعنة إلى صرفند، وهي مدينة لطيفة على الساحل، مورودة المناهل، ذات بساتين وأشجار ورياحين وأزهار، فأخذناها، وخيمنا على صيدا وقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها، وطلعت الراية الصفراء على سورها وأقيمت بها الجمعة والجماعة، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة.

ثم سار في يومه على سمت بيروت، فنزل عليها يوم الخميس، وضايقتها وحاصرها ثمانية أيام، ثم طلبوا الأمان فأمنهم وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى.

ومرض العباد فأملى كتاب صلح بيروت، ورجع إلى دمشق للمداواة، ثم وجد الشفاء، وعاد إلى السلطان يوم فتح القدس كما سيأتي.

قال: وسلمت بيروت بحضوري، فكان من سبب ابلالي سروري بفتحها وحبوري، وخرج منها ومن قلعتها الفرنج وامتلاً بهم إلى صور النهج، وعاد الاسلام الغريب فيها إلى وطنه، وتوطن الدين بها في مأمنه وسكن في مسكنه، وأما جبيل فإن صاحبها أوك كان في جملة من نقل إلى دمشق مع الملك الأسير، فضاق ذرعا بسجنه الذي تعجل له فيه عذاب السعير، فتحدث مع الصفي بن القابض في أمره، وباح إليه بسر، وقال: مالكم في أسري فائدة ولاغنيمة على فتح جبيل زائدة، وأنا أسلمها بشرط سلامتي، فخذوها ولاتفقدوني، فقد قامت قيامتي، فأبى الصفي حاله، واستصوب ماقاله، فأمر باحضاره في قيده والإحتراز من كيده، فوصل به ونحن على بيروت فسلم جبيل وسلم وريح نجاته وغنم، ومضى إليها من تولاها، وانسل منها صاحبها وسلاها، وتبعها فتح بيروت وتلاها،

فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل في سلك من الفتوح متسق، وأمر من الاستقامة متفق، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين، مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين، فذاقوا العزة بعد الذلة، وفاقوا الكثرة بعد القلة، وصدقت البشائر، وصدحت المنابر، وظهر عيب البيع، وشهر جمع الجمع، وقرىء القرآن، واستشيط الشيطان، وخرست النواقيس، وبطلت النواميس، ورفع المسلمون رؤوسهم، وعرفوا نفوسهم، وكان كل من استأمن من الكفار يمضي إلى صور محمي الذمار، فصارت صور عش غشهم، ووكر مكرهم، وملجأ طريدهم، ومنجا شريدهم، وهي التي فر القومص إليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم، ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلأها، وأوى إلى طرابلس وثاها فما متع بها ملك وكان كما قيل: «راح يبغي نجوة من هلاك فهلكت»، وتعوضت صور عن القومص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان بإبليس، فأدرك ذماء الكفر بعدما أشفى، وأيقظ روع الروع بعدما أغفى، وضبط صور بمن فيها، من مهزومي الفرنج ومنفيها، وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغول شياطينه، وأضرى سراحينه، وأخبث ذنابه، وانجس كلابه، وهو الطاغية الداهية، الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى الساحل قبل هذا العام، واتفق وصوله إلى مينا عكا وهو بفتحها جاهل، وعمن فيها من المسلمين ذاهل، فعزم على إرساء الشيني بالمينا، ثم تعجب وقال: ما نرى أحدا من أهليها يلتقينا، ورأى زي الناس غير الزي الذي يعرفه، فارتاب وارتاع، وحدث عن الدخول توفقه، وبان تندمه، وتأخر تقدمه، وسأل عن الحال فأخبر بها ففكر في النجاة والهواء راكد، والقضاء عنه راقد، فإنه لو خرج إليه مركب لأخذه، ولو وقف له قاصد لوقده، فاحتال كيف يخرج بسفينته، ولا يدخل مع فقد سكينته، فسأله عن متولي البلد، وقال: خذوا لي منه أما نا حتى أدخل وأرفع ما معي من المتاع، وأنقل ما عندي من الثقل، فجيء إليه من الأفضل بالأمان، فقال: ما أثق إلا بخط يده، ولا أنزل

إلا بعهدده إلى بلده، وهو ينتظر هبوب الريح الموافقة، فما زال يردد  
الرسل، ويدبر الحيل، حتى وافقته الريح فأقلع وأفلت من الشرك بعدما  
وقع، وصار في صور فرم الأمور وجراً الكفر بعد خوره، وبصر الشيطان  
بعد عماه وعوره، وأرسل رسله إلى الجزائر وذوي الجرائر يستعدي  
ويستدعي، ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعي، ويستشير ويستزير،  
ويستنفر ويستنصر، وثبت في صور ونبت، وجمع إليه من الفرنج من  
تشتت، ومافتح بلد بالأمان إلا سار أهله في حفظ السلطان حتى  
يصيروا بصور ويأمنوا المحذور، فاجتمع إليها أهل البلاد المفتوحة  
بالقلوب المقفلة المغلوبة المقروحة، فامتألت وكانت خالية، وانتاشت  
وكانت بالية، وتعللت وكانت معتلة، وتعقدت وكانت منحلة، ولم يحتفل  
بها فأخر فتحها فاستجدت رمقا بالمهلة، وتصبعت بعد مقادتها السهلة،  
وأهلى عن طلبها طلب ماهو أشرف وهو البيت المقدس، فإن فتحه من  
كل فتح أنفس والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه ويعقد  
الموثق ويرمه، ويجمع المتفرق وينظمه.

## فصل

### فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها

قال العماد: لما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ثنى عنانه عائدا على صيدا وصرفند، وجاء إلى صور ناظرا إليها، وعابرا عليها غير مكترث بأمرها، ولا متحدث في حصرها، ودلته الفراسة على أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالساحل بلد منها أحصن، فعطف الأعتة إلى ماهو منها أهون، وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية في قيودهما، وشرط معهما واستوثق منهما أنه يطلقهما من الأسر والبليّة، متى تمكن بإعانتها من البلاد البقية، وعبر والعيون صور إلى صور، وما شك المركيس أنه محصور محسور، فلما أرخى من وثاقه، واتسع ضيق خناق، حلق في مطار أوطاره، وحرك لغواته أوتار أوتاره، واجتمع السلطان بأخيه العادل واتفقا على طي المراحل، ونشر القساطل، فنزل على عسقلان يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، وشديدها قد لان، فتجلد من بها على الحصار وتربصوا وتصبروا، فنصب السلطان عليها مجانيق ورماهم بها، وجسر النقب فحسر النقب، وباشر الباشورة، فرفع الحجاب، واشتد القتال واحتد المصال، وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال: قد بان عذركم حين نقب السور، وجرت حالات، وتكررت حوالات، وترددت رسالات، وقال لهم الملك الأسير: لا تخالفوا مابه أشير، واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، ولا تخطروا غيري ببالكم فياني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت استنقذت، وخرج مقدمون وشاوروا الملك، ونهجوا في التسليم نهجه الذي سلك، وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة، وخرجوا بنسائهم وأموالهم، ومن استشهد على عسقلان من الأمراء الأكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين المهراني، وهو أول أمير

افتتح بالشهادة واختتم بالسعادة، وكان السلطان قد أخذ في طريقه إليها الرملة، وتبنين، وبيت لحم، والخليل، وأقام بها حتى تسلم حصون الداوية: غزة والنطرون، وبيت جبريل، وكان قد استصحب معه مقدم الداوية، وشرط معه أنه متى سلم معاقلهم أطلقه، فسلم هذه المواضع الوثيقة، كما أخذ موثيقه.

كذا قال العماد في كتاب الفتح، وقال في كتاب البرق: وما برح السلطان مقبياً بظاهر عسقلان حتى تسلم المعامل المجاورة لها، والبلاد المتخللة فيما بينها، فذكر الداروم، وغزة والرملة وتبنين، وبيت لحم ومشهد الخليل عليه السلام، ولد، وبيت جبريل، والنطرون.

قال ابن شداد: لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب يعني ناحية بيروت رأى قصد عسقلان، ولم ير الإشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها، لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل، وذهب كل انسان يأخذ لنفسه شيئاً، وكانوا قد ضرسوا من القتال، ومن ملازمة الحرب والنزال، وكان قد اجتمع في صور — يسر الله فتحها — كل فرنجي بقي في الساحل فرأى قصد عسقلان لأن أمرها كان أيسر، وتسلم في طريقه مواضع كثيرة: كالرملة، وتبنين، والداروم. فأقام عليها المنجنقات وقاتلها قتالاً شديداً، وتسلمها سلخ جمادى الآخرة، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة، وبيت جبريل، والنطرون بغير قتال.

قال: وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإن العدو ملكها في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسةائة.

وذكر ابن القادسي نسخة كتاب كتبه السلطان إلى بعض أهله وفيه: «انتقلنا إلى الجانب الذي فيه القدس، وعسقلان ففتحنا قلاعها كلها

وحصونه جميعها ومعاقله بجملتها ومدنه بأسرها وهي: حيفا، وقيسارية، وأرسوف، ويافا، والرملة، ولد، وتل الصافية، وبيت جبريل، والدير، والخليل، ونازلنا عسقلان، وهي المعقل المنيع، والحصن الحصين، والتل الرفيع، وفيهم من القوة والعدة والعدد ماتتقاصر الآمال عن نيل مثله، فافتتحناها سلما لتتام أربعة عشر يوما من يوم نزولنا عليها، ونصبت أعلام التوحيد على أبراجها وأسوارها، وعمرت بالمسلمين، وخلت من مشركيها وكفارها، وكبر المؤذنون في أقطارها، ولم يبق في الساحل من جيبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس، وصور، والعزم مصمم على قصد القدس، فالله يسهله ويعجله، فإذا يسر الله تعالى فتح القدس ملنا إلى صور، والسلام».

وفي كتاب آخر تقدم ذكر بعضه قال: «وقد تفرق العسكر، وتوجه قوم إلى القدس وابن زين الدين وتقي الدين نازلان على صور، وفتحت هونين بالسيف وتبنين، بالسيف واسكندرونه بالسيف».

وفي كتاب آخر: «ونزلوا على صور وكاتبهم ملك بيت المقدس يطلب الأمان، فقال له صلاح الدين: أنا أجيء إليكم، فقال له المنجمون: على نجمك أن تدخل بيت المقدس وتذهب عين واحدة منك، فقال: قد رضيت بأن أعمى وأخذ البلد».

قال: «ولم يمنعه من ذلك إلا فتح صور، وماهي شيء يقف عليه، وقد خطب لأمر المؤمنين الناصر لدين الله على ثلاثين منبرا من بلاد الفرنج».

قال العماد: وفوض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الأمور الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدمشقي، المعروف بقاضي اليمن.

قال: ووصل إلى السلطان من مصر ولده الملك العزيز عثمان، واجتمع

به على عسقلان، ففرت عينه بولده، واعتضد بعضده، ووضع يده بتأييد الله في يده، وكان قد استدعى بالأساطيل المنصورة فوافت كالفتح الكواسر بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً، وأفواج تراحم أفواجاً، تدب على البحر عقابها، وتخب كقطع الليل سحائبها، لؤلؤ مقدمها ومقدمها، وضرغام غابها وهمامها، فطفق يكسر ويكسب، ويسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.